عربة الصمت

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 7229 / 2020

الترقيم الدولي: 978 – 977 – 838 – 475 – 8

الكتاب: عربة الصمت

المؤلف: إبراهيم سبتي

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (660) لسنة2020

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

عربة الصمت

قصص قصيرة

إبراهيم سبتي

النخبة
للنشر والطباعة والتوزيع
2020

الإهداء

إلى عائلتي والأقمار التي تدور حولها

«كان يفزعني بخيالته.. وددت لو مات سريعًا حتى أفر من عينيه الماكرتين المروعتين المحتقنتين بالدم».

كراهام كرين/ الموت الثاني

عربة الصمت

منذ ثلاث ساعات والعربة صامتة لا تحب الكلام.. بجانبي عجوز ينظر عبر النافذة وهو يلوك بعلكة.. القطار السائر في البر الشاسع يصدر زعيقًا مزعجًا.

أمامي تجلس امرأة أربعينية كما يخيل لي، مطأطأة رأسها في الأرض.

الجو معتدل والسماء ملبدة بغيوم سود مخيفة وبالكاد تُرى الأشياء من النافذة رغم أن الوقت ظهرًا.

وعلى يمين المرأة يجلس رجل ثلاثيني ـ كما خمنت ـ ببدلة سوداء أنيقة ولكنه بدون ربطة عنق تاركًا الزرين الأخيرين من قميصه الأبيض مفتوحتين.

الزعيق يحوم حولنا وصمت العربة يتبخر مع كل صفير يطلقه القطار الذي يسير ملتويًا كأفعى خجولة.

الثلاثيني كان يسترق النظر إلى المرأة المتسمرة بالأرض فيما ظل العجوز يبحلق بعينيه إلى الخارج الذي صار النهار فيه أشبه بغروب جراء الغيوم السود المتراصة.

ثلاث ساعات تحولت العربة فيها إلى صفيحة قمامة.. الأوساخ والنفايات انتشرت بغرابة أسفل المقاعد وفي الممر الضيق.

الركاب يرمونها بكل سرور وصاروا كأنهم يجلسون في مكب للنفايات ولكن لا كلام.

لم أسمع صوتًا أو حديثًا إلا بالهمس غير صكصكة العربة المتهالكة التي يبدو أنها صنعت قبل خمسين عامًا.

فجأة ظهر بائع متجول يحمل ترمسًا معدنيًا صغيرًا وأكوابًا من البلاستك الخفيف. شاي، شاي..

مُدت الأذرع حاملة النقود لتعود حاملة الأكواب الممتلئة بشاي ينفث دخانًا.

بعد دقائق رميت الأكواب وغرقت العربة بنفايات خلت أنني لم استطع النزول بيسر أو السير في الممر الوحيد هذا.

إنه منظر بشع. المرأة الأربعينية بدأت تتململ في جلستها وبدا أن الثلاثيني الأنيق قد ارسل لها ابتسامة ولكنها صدتها بالتفاتة سريعة نحو النافذة فيما راح يرمقني بنظراته التي أراد إثبات أنه راكب متزن محترم.

لم يكن الفضاء الخارجي قد تحسن كما أردت، بل كان يتعقد وتشتد الريح كما رأيت الأشجار التي نمر ببعضها وهي تتحرك بعنف كخائف وسط الموت.

العجوز أخرج منديلًا وراح يمسح عينيه وأنفه ثم أعاده إلى جيبه بحركة رتيبة، الا أنه نظر إلى المرأة نظرة فيها أسئلة وربما فيها أشياء لا أعرف مداها. كانت تنظر نحو النافذة وبدت غير مبالية بشيء.

أطل علينا بائع آخر وهو يحمل بعض قناني المشروبات الغازية. لم ننظر صوبه ولم أر أحدًا منّا نحن الأربعة قد اشترى منه، إلا أن أغلب من بالعربة كانوا سعداء وهم يرتشفون المشروب البارد ذو نكهة البرتقال كما مرسوم.

بعد أن انتهوا من حفلة الشرب رموا بالقناني إلى الممر الذي خِلت بأنه يئن من هول النفايات التي جثمت عليه وصار المنظر أكثر بشاعة.

المشهد في الخارج يشي بشيء من الخوف في دواخلي ولا أعرف لمَ كان يمور في رأسي كلما تقدمنا.

كان القطار يسير ببطيء وكأنه امرأة تحمل جنينًا في أحشائها ويتلوى مرتخيًا. لم يصدر أي صوت لكلام من أي راكب عدا بعض الهمس الذي يتراءى لي أنه قادم من المقاعد القريبة. مشغولون في إخراج ما يخبئونه من حقائبهم من أكلات وسواها.

دخلنا في الساعة الرابعة وهم ما زالوا يمضغون بمنظر مقزز ألهب بداخلي الاشمئزاز والقرف، ولكني لا أقدر على فعل شيء سوى النظر بصمت.

تصاعدت تلال النفايات في الممر وتحت المقاعد وكأنهم اقسموا على ترك العربة بوزن مضاعف.

فجأة دوى إطلاق نار في العربة ولكنه ليس قريبًا مني. تصاعدت الفوضى وتصارخت النسوة، وكأن صراخهن قد شق جدران العربة من هوله.

نهض الرجال بفزع وهم يتفحصون الأمر فتجمعوا قرب المقاعد الأمامية وكنت قد نهضت ملتحقًا بهم، فيما ظل الأنيق والعجوز والمرأة في مكانهم.

ثلاث اطلاقات دوّت وانتهى كل شيء... رجل ممدد فوق النفايات والدم يسيح من صدره كالميزاب.

مرت الدقائق والفزع علا الوجوه ولم يتكلم أي راكب عما حصل. القطار يسير بأفعوانيته المملة لكننا غرقنا في ظلام دامس.

قال أحد الرجال باننا ندخل نفقًا. القتيل ظل ممددًا ولا أحد غيرنا قربه.

القطار يسير في ظلمة مقيتة فتراقص ضوء ولاعّات بعضهم. القطار لم يجتز النفق بعد عندما قررنا حمل الجثة والتوجه إلى كابينة السائق فتهادت إلينا أصوات تهديد وتشابك ووعيد وصياح يبدو أنها مشاجرة عنيفة فزاد خوفي.

تركنا القتيل وخضت مفزوعًا بين أكوام النفايات قاصدًا مكاني مع الآخرين. لمحت مقعد الأنيق خاليًا وقد اختفت المرأة معه.

ما زال النفق طويلًا حين وجهت نظري إلى العربة التي خلت تمامًا من الركاب حتى العجوز القريب مني قد اختفى هو الآخر.

العربة خالية إلا مني وجثة القتيل الممددة. الظلام الذي كانت تنيره بعض ومضات ولاعات السجائر، قد اختفت. لا ولاعة عندي ولكني أسمع عربدة العجلات وهي تسير مترنحة على السكة ولا سواي.

مرّت الساعة تلو الاخرى والأيام تترى وتترى وما زال القطار يجتاز النفق حتى خلت أني سأموت من رصاصة أو من العطش ولم أعد أرى من النافذة شيئًا وتساءلت: أين ذهب الركاب؟!

***

خيول بدينة

كانت الخيول الثقيلة تقطع الطريق الترابي المنداح على مدِّ النظر، وتثير زوبعة من الأسئلة والغبار الذي يعلق بواجهات البيوت الطينية الهرمة حد الانحناء، فكانت غلالته الكثيفة تتداخل مع صهيل الخيول المتهدلة البطون والمنبسطة في سيرها وكأنها هرمة متعبة، وخلت أن الجوع يفري أمعاءها فأحالها إلى أجساد بعظام رميمة.

تجتاز الطريق تلاحقها نظرات الأهالي الحائرة والمدهوشة وهم يمسدون مشاعرهم وكأنهم يقولون سنصبر لنرى خاتمتها.

- إنهم يسيرون فوق بطوننا- قالها عجوز مدّ عنقه من نافذه متهرئة.

رجل رثّ الثياب، راكض خلف الخيول يصرخ بأعلى صوته:

- مجانين اذهبوا واغتسلوا في النهر أنتم وجيادكم القذرة!

كان المخبول ـ كما يصفه البعض ـ المعتوه المعربد دومًا في شوارع القرية وبيوتاتها، هو الوحيد الذي يجرؤ على الحديث معهم ويرشقهم بسليل الكلام النافذ والمهين. فلا أحد منهم يرده مهما كان حجمه ومكانته. إنه بوق لا يسكت .

الخيول تحمل ما تحمل من رجال المعسكر الشاخص عند الأطراف وهم يجدّون في سيرهم غير آبهين.

الراكبون على الخيول لا يلتفتون أبدًا وكانهم تماثيل شدت على ظهور الأحصنة.

المخبول الراكض خلفهم بحماس مندفع غير هيّاب، يسقطه أحدهم بلكزة قوية بعُقبِ بندقيته أوقعته أرضًا وتمدد متالمًا متأوهًا.

البيوت الغارقة في الصمت تهجع بعزلتها رغم ما يثيره الموكب من ضجّة وغبار وخوف فصار المكان موحشًا كوادٍ أصم مسكون بالحجارة.

الخيول البدينة بدت متعبة تستجدي الشفقة وهي تترنح تحت سياط الرجال المتحجرين. مُدت الاعناق خلفهم، فكان كل واحد يتلصص خشية رؤيته فيدخل في متاهات الأسئلة التي لا نهاية لها وربما يسفّر صاغرًا إلى مركز المدينة البعيدة فتضيع أخباره كما ضاعت وتلاشت أخبار بعض الرجال.

فجأة، الخيول تستدير بوجوهها لتمد رقابها العريضة القصيرة بشعورها المنفوشة صوب البيوت لتواجهها بعيونها الصغيرة المختبئة تحت محاجرها.

سدّت الأبواب وهجعت ثانية وكأنها نامت في قبور لا رجعة منها. وترجل الراكبون ببنادقهم تاركين خيولهم الممتلئة لا

حراك فيها، ليكوّنوا مربعًا ينقص ضلعًا واحدًا ووقف أحدهم في المنتصف صارخًا برجاله بنبرة تهديد ووعيد وكأنه يريد اسماع من في جوف البيوت:

- اليوم تنتهي المهلة..ـ بعدالظهر تكسرون الأبواب الموصدة وتدخلون وتبحثون عن قاتل المأمور، إنها أوامر عليا ولا مجال للنقاش، الأمر متروك لنا يجب إحضاره ولو كان تحت الارض!

عنـد الظهيـرة كـل شيء كـان يلتهب ويوحي مرآهم بأنهم على وشك تنفيذ أمر القيادة العليا.

تقدم المخبول ليخترق أحد الأضلاع المواجهة للبيوت فردّه أحد الواقفين بوكزه بماسورة بندقيته الطويلة فابتعد عنهم مهمهمًا .

حدثني أبي عندما كنت أتأمل جهاز المذياع الخشبي الكبير الراقد أعلى المنضدة المتهرئة وهو يذيع خبر مقتل المـأمور.. يومها كان قيظًا قد ضربنا بعنف ونحن داخل بيتنا الطيني المتهالك. قال بحسرة المظلوم:

- لم أكُ أعرف بأن السنوات ستزحف عليّ مثل قضبان الحديد في زنزانة مظلمة. إنها ناكدة مطيحة للآمال، انتهت رحلتي في هذه الدنيا!

قلت وأنا الصبي الصغير الذي لم أجد سببًا لتذمره:

- الخيالة وقفوا أمام بيتنا ومنظرهم لا يوحي بأنهم سيغادرون .

التوى عنق أبي تحت وطاة كلامي وجلس مقرفصًا كأنه يريد النوم في وضح النهار وكانت عيناه ذابلتان حزينتان. مددت يدي اليمنى ممسدًا شعره الأبيض فشعرت بحرارة تسري بين أصابعي وأيقنت أني كنت في حلم وصحوت منه ..

وكأني سمعت صوتًا انسل من أقصى البيوت البعيدة.. صوت فيه انكسار غريب ونبرة لم أسمعها من قبل وصار يتهدّج كأنه يبكي:

- إنهم يبحثون عني! سأرحل معهم دون رجعة، الذي يُساق معهم لا يعود! اعتن بأمك لا تفارقها وكُن رجلًا يدير الدكان بحنكة الماهر ولا تعبأ لهم حتى لا يسلبونك حياتك وتكون عنقك تحت سكينهم .

يومها لم أعرف ما قصده ولم أستطع إدراك كل ماقاله لأني لم أفهم تمامًا ما يحدث ولم يبح بسره لأحد غير أمي التي اعتكفت صامتة شاردة هاذّية كالمحموم .

ارتفع سعال أبي الاجش وخيّم الصمت المفاجيء وأصبح المكان يضيق بنا بينما كان ملتاثاً ومشتتاً وحزينًا ..

الأمر الوحيد الذي لم أستطع نسيانه أبدًا أن الخيالة اقتادوا أبي المنكسر عصر ذلك اليوم وهو يوزع نظراته على البيوت التي فتحت أبوابها واندفعت أحشاءها مذهولة.

تعالى صياح أمي وبكاؤها وخرج الجيران بوجوه تائهة غضبى عندما وجده المخبول جثة هامدة مرمية وسط مكب النفايات صباحًا بعد طلوع الشمس بقليل.

هرول الأهالي إلى المكان وقد غطى الدم صدره واصطبغت دشداشته السمراء بلون أحمر.. تشرنقت في ركن من بيتنا الذي ازدحم بالنسوة والرجال الباكين المفجوعين بمقتله .

أدركت حينها أن أبي مات مقتولًا بطلق ناري في أنحاء جسده من قبل الخيّالة بقرار من القيادة العليا. ولم اسمع أمي من يومها تتكلم مع أحد أو تكشف وجهها لأي أحد حتى لاخوتها الذين داوموا على زيارتنا، إلى أن ماتت كمدًا ولم يكمل أبي سنته الأولى في ليلة ممطرة من أصل ثلاث ليال لم ينقطع هطول المطر، الذي أغرق بيتنا الطيني وطافت البيوت الأخرى في لجته وتراكض أخوالي يرفعون جثمانها لائذين بجدار أو شجرة تقيهم الهطول الغزير.

بعد انقضاء مجلس العزاء، لم يزرني أي أحد وأصبحت وحيدًا أدير بقالة أبي التي أوصلتني لإكمال دراستي.. لم أفكر يومًا بترك بيتنا المتهالك ومغادرة القرية الصغيرة التي صارت أكواخها بيوتًا مشيدة من الطابوق وامتلك بعضهم سيارات ودخل أطفالهم إلى المدارس.

انقلب حال الدنيا عندما وجدت أن حال القرية انقلب تمامًا.. صرت معلمًا في مدرسة القرية لمادة التاريخ.

فجأة فارت عروقي وطفر الدم منها حينما وصلت إلى الصفحة التي تقول بأن المأمور الانجليزي قد قنصه أحد الشيوخ المعروفين في القرية..

تركت الكتاب يسقط دون وعي تحت نظرات التلاميذ المندهشة وسرت كالثمل إلى بيتنا حافرًا تحت غرفتنا الآيلة لأعثر على خنجر صغير خبأته امي .

***

الشارع الوحيد الخالي

عُدْتُ. الليل يلفّ الشارع الترابي فتلتحف البيوت الهاجعة بين ضلعيه في سكينة وصمت..

أبحث عن أشياء أعرفها، عيني الشوّافة تتسرب إلى الزوايا والأزقة في الشارع الوحيد الخالي من الناس في هذا الوقت .

انحرفت قليلًا نحو أحد الأزقة الضيقة الطويلة الذي لم أنسه في أتون غربة أذابت روحي وكل أشيائي وتلاشت فيها لعشرين سنة مضت إلا هذا الزقاق النابض مثل قلب ممهور بالإحباط فظل شاخصاً في دخائل رأسي المتوجع من أعوام عبث وفوضى عشتّها بعيدًا عنه.

ثمة إحساس كامن لا يفارقني رغم هول ما رأيت هناك. يجول في رأسي عشرين عامًا مذ غادرته مستعذبًا فكرة الهروب من جحر الثعابين هذا قلت لن اراه ثانية ومكثت في مدن الصقيع والشوارع الموحشة حد اللعنة.

لم يتغير أبدًا. البيوت ذاتها مذ عرفتها والنوافذ المتقابلة ظلت تحكي إيماءاتنا ونحن نحتفل ببوحنا صغارًا لا نعرف شيئًا فنتلقى صفعات الاباء المندهشين من جرأتنا.

الأبواب الخشبية المتهالكة احتفظت بألوانها الشبحية الباهتة رغم غرقها في الظلمة المقيتة وثمة بيت يجاورنا، ما زال متهدماً وخرباً سكنته ثلاث نساء عجائز يريق ذكرياتي التي تنساح مني مرغمة. كلما مررنا به نحن الصبيّان خفت وزغت ببصري بعيدًا لأنه مسكون.

هكذا قال أبي وقتها فصار لعنة في الزقاق لكل قاطنيه، لكنّني لم أعبأ وأنا أفرط في النظر إليه الآن متذكرًا فورة الغضب العارم التي حاقت بالبيوت قبل ان يهدمه الأهالي بمعاولهم وهم يصرخون بلعنته.

ولم ندرِ شيئاً عن مصير النسوة اللائي يرعبننا في كل غروب عندما تتصاعد الأبخرة والأدخنة الغامضة والمريبة من سطح دارهن فتدخل الرائحة إلى البيوت فتتعالى صيحات الخوف، وأنام قلقًا شبه يقظ وتتداعي إلى ذهني الأصوات والضجيج الممزوج بالخوف فتعربد الأفكار في راسي وينتابني الفزع، انه اجترار لحزن قديم.

هناك في بلاد الصقيع لا يحدث كل هذا الذي أعرفه أو الذي كنت أعرفه، إنهم يتشاجرون همسًا ولا يصرخون، كنت طامحًا في حياة أكثر راحة فلا فتيات تحرق بنيران الأحبة ولا فراق يطيح بعنفوان الرجال. موهماً إياي بعيش لائق.

انسلت مني دمعة متذكرًا يوماً موجعاً في صباي حينما نهضنا من نومنا مبكرين مفزوعين على أصوات بكاء وصراخ يقطع خيوط القلب لفتاة الجيران التي أحرقت نفسها على دكة البيت المطلة على الشارع الترابي هذا، اول بيت في مدخل الزقاق، ورأيتها رؤى العين كيف تتلوى كأفعى مرعوبة بفعل النيران التي أكلت جسمها الغض صارخة دون أمل.

أمها المكلومة شقّت ثيابها بجنون ولطمت بعنف على وجهها المدمى وكانت النسوة مخنوقات العبرة يلطمّن بصمت، موجة عارمة من الحزن.

ما زال المكان شاهدًا على تلك اللحظة الفاجعة. قال الاب المجروح القلب:

- لا أعلم لماذا!

الحياة هنا في زقاقنا، كشجرة تبدأ بحنو الصغار وتنتهي كعجوز يرمونها بأقذع الكلام.. هي حياتنا وإن لم نرض. فلا مصير غير مصائر كتبت لنا منذ أول لحظة نزولنا إلى زحمة العالم الفسيح ولا عمر نعيشه كأعمار غيرنا ..

سمعت رجلًا نحيفًا اندّس بين الواقفين صائحًا:

- نعيش أرقامًا في لائحة انتظار مجاهيل أخرى، لائحة خطت منذ الأزل على الرقم الطينية حينما نقبوا في المدن ووجدوها تحت التراب تخبرهم

أنهم قوم ينتظرون مصائرهم. وها نحن ننتظر مصائرنا مثلهم.. نموت بكثرة نحن أو لنقل الأكثر موتًا جزافًا.. هي القيامة المعلنة التي نزورها كل لحظة وتزورنا لا عزاء لنا ونحن نعتصر جروحنا التي لا تندمل..

كان صوته مفعمًا بكآبة غريبة .

لم استطع تجنب رؤية مكان الفتاة المحروقة وأنين صيحات أمها المنهارة وصراخاتها وهي تموت امام الناس الذين احضروا بطانية وشرشفًا ولكن الغياب كان أسرع فتوارت كقطعة فحم في تنور هائج ملتهب.

كنت مأخوذًا بذاك المشهد لحظتها مع انّني لم أقو على فعل شيء. ماتت الفتاة ذات العينين اللامعتين متفحمة أمامنا وتركت في قلوبنا حسرة عَجزِنا حينما نسينا شهامتنا ونحن نتجمهر أمام المشهد النادر لموت المسكينة على الطريقة البائسة وصارت تستفزنا في كل حين فظللت أكابد وحدي مرارة اللحظة فيملأني السخط وتحتدم افكاري وصرت متخما بتل هائل من الاحباط .

أمشي متجنباً المنظر البشع لميتة لم ارَ مثيلا لها، ولكنّني أردد بان للموت حرمته وللميت هيبته، يا لشجاعتها!

كيف أحرقت نفسها وهي البنت الخجولة المؤنسة لوحدة أمها المريضة؟

لم تعرف المهادنة والخنوع فأرادت تعبيرًا آخر لعنفوانها فكانت كالمستجير بالرمضاء من النار، مؤكد أنها لم تعِ الموت وسطوته فأوجعتني لحظة الاشتعال والانطفاء وامتلأت عيني بدموع العجز والندم فيما أصرّ الرجل النحيف على القفز نحوها لكنّه كان ضعيفاً ويداه لا تقويان على الأمساك بالنار المشتعلة.

الدخول إلى عمق الزقاق سيغير الكثير منّي، إنه حياتي التي ساحت على أرض لا ثمر فيها واردتني خاوياً عاجزاً لا قدرة لي ولا تحمل.

عشرون عامًا بين شوارع وحارات وأزقة باردة لم أُحسب يومًا عليها ولم ترضَ أن تعاقرني غربتي فكانت بعيدة حد الإعياء فتركتها وانطويت محملًا بالأسى عائدًا إلى زقاقي أتأمله واتذكر جارنا الطيب الذي اختفى فجأة ولم يظهر ثانية.

وقفت أمام بيتنا، ما زال منتصباً في الوسط فتلبستني حالة من التوجس فيما تلقف أنفي رائحة شاي أمي فيما أبي كان يريق ضحكاته وهو يرتشفه متلذذًا.

طرقت الباب المندّس في الظلمة وامعنّت فيه طرقاً ولا مجيب. طرقته بعنف وجنون وكاد أن يسقط، رأيت الناس يخرجون من بيوتهم كالموتى يسيرون نحوي مترنحين فيما قفزت واعتليت

الجدار المتهدم لبيت العجائز المسكون وتواريت في حجرة مظلمة بعيدة يتصاعد منها دخان رائحته غريبة وسمعت صوتًا عذباً ينطلق نحوي خمنّت أنه صوت جارنا الطيب المختفي ..

***

امرأة الفنجان

أُعلن اسمه في أخطر قوائم المطلوبين، كان يتلوى هاربًا مع كل عملية دهم لمكانه أو مقره. يفلت كخيط الحرير من الماء الدافق.

كل الأشياء قد سُخرت لأجل القبض عليه والاتيان به حيًا، صار حديث البيوت والشوارع ومكمن أسرار الخائفين.. خطير حد الرهبة التي يتركها في القلوب بعد كل جولة له.

في ساعات الغروب الأولى، كل الأبواب توصد والشوارع تخلو والمحال تُقفل ويتحول كل شيء إلى جماد لا روح فيه.

في النهار تصدح الأبواق وسماعات التحذير من إيوائه أو التستر عليه، إنه خطير ومخيف، قاتل محترف ولص متدرب ومحتال شرس لا مثيل له.

كانت جهود العسكر قد بانت أمام الناس وانتشروا في كل أرجاء المدينة فسدوا الشوارع بكمائن متحركة وقفلوا الأزقة بجذوع الأشجار وقطعوا كل الأوصال بين الناس.

المحاذير كبيرة والظهور العلني لرجال العسكر ظل يرسل الاطمئنان إلى الناس الخائفين من شر يحوم حولهم. إنهم لا يعرفون

من التالي في القائمة هذه الليلة أو الليالي القادمة فهو لا يأتي إلا في الليل وكانه شبح في ظلمة هادرة. وعندما يتصاعد الصراخ والعويل فهي رسالة الموت التي وصلت.

وفي الصباح يتجمع الناس ليروا ويسمعوا حكاية الخطير الذي لا يعرف الرحمة مع ضحاياه. كل ضحية تمتنع عن تلبية أوامره فهي هالكة وكل رجل يتحايل عليه في اخراج كنوزه فهو مقتول. وكل واحد لا يلبي رغباته المكبوتة فهو ضحية قادمة.

خطر يداهم الجميع ولم تفلح كل الخطط في الايقاع به. حتى الكلاب البوليسية متجهمة الوجه لم تعثر على ضالتها.

انتشر الخبر في المدن القريبة والبعيدة، حتى توالت تحذيرات أعلى السلطة من خطر هذا الوحش الطليق. وصار تحذير الناس للناس واقعًا يوميًا وتهامسًا بين كل اثنين.

مرت الأيام والشهور والمدينة تستباح كلما يقرر هو فيها الصولة والهجوم على البيت الذي يختاره رغم الحماية والحراسة المشددة التي تطبق يوميًا ودون كلل.

ضجر الأهالي من خوفهم المستديم والخوف كغيمة سوداء سادت سماءهم. طلبت المدينة تعزيزات من مدن مجاورة فحضر الرجال بمعداتهم الحديثة وكلابهم المدربة وانتشروا في الشوارع

والطرقات والأزقة والمحلات والمحال والبيوت. كانت خطة جديدة طمأنت قلوب الخائفين.

بعد أربع ساعات من وصول النجدة، دوى الصريخ المهول والنياح المتعالي وبدت كأن الأرض دُكت بزلزال أطاح بالبيوت وأمات النفوس.

تجمعوا أمام البيت المفجوع، إنه ضحية جديدة رجل لا يمتلك من حطام الدنيا شيئًا. هاج الناس وصرخت النسوة. قلق يسود وصمت يلف البيوت والشوارع كمقبرة لا حياة فيها سوى نعيق غربان سود. كل الافكار نضبت وتقادمت الخطط والخطير يحوم بلا رادع. صاحت امرأة من بين الحشود الهادرة:

- لقد رايته البارحة يتمشى في الشارع الطويل المحروس!

كانت كلماتها وقعت كصاعقة على الرؤوس ولكنهم سمعوها ذاهلين لم يقولوا شيئًا غير أنهم انسلوا بهدوء راكضين نحو بيوتهم لترتفع أصوات اقفالها من الداخل. المراة التي ظلت واقفة تقدمت من كبير الحراس وسرته بهمس:

- استطيع أن ادخله في جحر الفئران!
- وكيف ذلك؟

- هو بشر مثلنا وله بيت وزوجة سأذهب إلى بيته واقرأ الفنجان لزوجته .

بعد أسابيع تمكن أحدهم من معرفة بيته في المدينة المجاورة، لا يأتي إلا مصادفة وفي أوقات لا يمكن أن يعثر عليه أحد، إنه بالغ الحذر كما قال الرجل مكتشف البيت.

هرعت المرأة ومعها حراس متنكرين في الشارع، لتدخل البيت وتخرج بعد ساعة مبتسمة .

فرح الرجال وأخذوها مبتهجين إلى كبير الحراس الذي استمع بكل جوارحه. لقد أمالت قلب زوجته بحركة ذكية وماهرة وسريعة. قالت إنها تعيش بفرح غامر في بيتها.. امرأة تخدع امرأة أخرى.. قالت لها سأجعل زوجك يقبل تراب قدميك.. قرات فنجانك، له عشيقاته ولك مصائبك ايتها الغافلة. هات شعرة من راسه لأجعله أسيرًا لك ما تبقى من عمرك ولتذهب عشيقاته إلى الجحيم.

أطلق كبير الحراس ضحكة المنتصر وزالت علامات الحنق عن محياه وقرر إكمال اللعبة. عليك الاحتفاظ بهدوء أعصابك وأن تجعليها كطفلة شديدة الخوف منه أيتها الماهرة، إنه دورك.. المدينة تنتظر منك الكثير. والأهم أن تقول زوجته كلمتها وتتصل بك.

كانت المدينة تصارع الساعات وكلما مرّ وقت ابتهلوا شاكرين على نجاتهم ولكنهم ظلوا يخافون الآتي.. تسعة شهور يخافون ما سياتي به ذلك الخطير المختفي كالشبح.

النار ما زالت مضطرمة في قلوب الناس المرتعدين الذين باتوا لا يميزون بين قرع على الباب وبين دوي ارتطام جسد قتيل بالأرض.. كلاهما ترتجف له الأوصال ويتجمد الدم في عروق من يفكر به. عجوز خائف يشتكي الأمر للحرس متوسلًا ان يقبضوا عليه .

اتكأ كبير الحراس على كرسيه واستسلم إلى رقدة هي أهنأ رقدة في حياته وهو يراقب العجوز الخائف المنصرف المختبئ في أعماق خوفه.

لم تتصل الزوجة ولم يحدث أي أمر يقلق الأهالي فيما رأى الناس رجلًا يتجول في الأسواق والطرقات والأزقة، يسال عن قارئة الفنجان بوجهه المتجهم المخيف .

***

المرهوب

جَفلتُ لَحظةً، هي ذاتُها الأرض التي تَركتُها. البيوت متلاصقة كأن خوفًا وشى بها.. أطاردُ لعنةَ حطت بين ساعات اجتررتها من سنوات غيبتي. وقفت أنظر إلى حطام قديم، بيت من أكوام القصب المخلوط بطين حري كان أبي يصنعه كما يصنع طاقيته من خيوط البريسم.

نهاري ليس كما نهار الآخرين حين اتخذت قراري المروع قبل عشرين سنة أو يزيد. كان نهارًا طويلًا أطاح بمللي الفاجع .

في كل يوم، تتكرر ذات القصة التي حفظها من هب ودب/ هكذا اعتقد/ وصارت حاضرة بين الجدات والعجائز والصغار.. الابن الذي أحرق عائلته النائمة وأمات الزرع والضرع، قصة حكيت هنا وانتشرت شئت أنا ام لم اشأ.. في الظهيرة تلتهي بها النساء تحت الهجير اللافح وفي المساء يتدثر بها الرجال/ هكذا اعتقد/ واحدة تفاصيلها لا تتغير .

اسمعهم/ يتراءى لي/ ولا أتكلم.. يشيرون بأصابع مرتجفة نحوي، ابتسم ولا أقول شيئًا .

في صيحة هلع حادة ومريعة، دنوت صبيًا من البيوت المرتجفة تحت ألسنة لهب الحر اللاهب، تتمايل في عيني راقصة وأنا أحطُ آخر قدم لي في كوّتها الحارقة بعد أن أعياني البحث عن أجوبة لحيرتي .

بيوت الظهيرة ترتجف من الحر في منظر يوحي بالاتون المستعر في خدود القرية المحاذية لحلمي الطويل يوم شبت أكواخها واحترق كل شيء في داخلها ولم تنفع الدموع الهاطلة من عيون من مات حرقا وهي تذرف استرحاما ..

يومها ماتت القصص واحترقت الأحلام ويبست الذكرى وتوقفت.

في حدود الحريق، ثمة من ظل واقفًا ينظر مصعوقًا من هول ما رآى.. أفر أنا الصبي الفاعل وتتدافع الأجسام الهائمة على وجوهها ليخمدوا ما استطاعوا.. تتلاقف الأيـادي الخشنة دلاء الماء.. يتسابقون مع الموت!

هل انقلبت الأرض وزلزلت زلزالها تلك الساعة؟ بريق العين يمسسه نعاس النهار . وأنام خائفًا .

النهار الملبد بشحنة موت مرير، ينتظر لقاء طال أمده، إنها مفارقة الموت فوق أجساد مشاكسة تموت تحت لهيب نيران أباحت شواء الأشياء دون رحمة .

النيران تستعر من فوق أدعية الرفوف الجاثمة فوق رفوف ملأتها شقوق التقادم كأنها محفورة عنوة في باطنها .

كتاب الأدعية الوحيد المحترق، مغطى بجلدة سميكة مائلة إلى الأسود المقفر، تفوح منها عطر تعاويذ امي المركونة من سنين.. متروكة لا تطالها سوى يد أمي في المصائب حين تردد دامعة: «وأسألك يا كريم باسمك العظيم وسلطانك العزيز، يا واهِبَ العطايا والرزق وَيا مُطْلِقَ الأُسارى في البر والبحر وَيا فَكّاكَ الرقاب مِنَ النار».

حفظتها صغيرًا ورددتها أكثر من أمي دون أن أحل ألغازها... بيوت صغيرة هي كل ما ارتفع خجلًا فوق أرض موحلة لزجة لا تساوي حبة عرق ساقطة من وجوه أعيتها الأزاميل فترفض بإباء وعناد أن تحمل بين جنباتها أجنة الحياة لم تتغير أبدًا.. زرعها يموت صغيرًا، بور في بور ..

ينظر الصبي الواقف- في عز الظهيرة المغبرة- بدشداشته المخططة الشبيهة بجدران أكواخ ظلت متدافعة نحو الهروب من وقفة مملة، نهيق حمار لا يردعني ونقنقة دجاجة مذعورة فارة أمامي لا تمنعني.. انظر واجمًا إليهم وأصب قنينة النفط على فرش الغرفة البالية لتلتهمها نيران الضحك والهزؤ من حياة أدنتها يوم قلت لهم:

- جحيم في جحيم!

لم يلتفت إلى أحد، فكان الجحيم/ كما أراه/ يختلط بلعاب المضغ في فم والدي المتوثب للبقاء حيًا ولا أمل يرجى منه للمغادرة..

صحت أنا الصبي المنقوع بحيرتي:

- موت.. الحياة في هذا الجحيم، موت!

لم يتنفس يومها أحد. فما الموت من فم صبي لاه. حتى وثب أبي هاويًا بلطمته على وجهي. جحظت عينا أمي ولازم الذعر وجهها. قفزت إلى حضنها وتعلقت بذراعها.

فكان ما كان، نيران جهنم تتقافز أمامي وتتصاعد هابة من أنحاء البيت- الكوخ المتداعي- نحو الأكواخ المتلاصقة في نهار مغبر كما هو في كل يوم في صيف لا يعرف الصفاء. ريح تنشر النار وأنا أدمع من دخانها ..

النار تذيب الأجساد!

أجلس على حجارة منسدلة من موضع قريب لصيق بجدار مقصى.. أعد صرخاتهم الذائبة في لجة السعير في موت مؤكد.. واحد، اثنان، ثلا..... ويتوقف العد. منظر النار الزاحف أتونها يحيلني إلى فكرة الهرب فيما الهسيس يتلاشى وتعلق الرائحة في فضاء الدخان ..

جحيم في جحيم.. نار في نار! شواء ..

أضحك طربًا من عملي المشين، فأغمض من غبار يلاحقني كما الرائحة الصاعدة من جوف البيوت.. شواء.

جسم لاحه الهزال فصار ريشة تتلاعب بها ريح، استرجع في رأسي فرحًا: فيم مات وفيم سيموت ..

مخيلة انفلتت مني إلى التيه البعيد كريشة في مهب ريح مغبرة لاذعة.

أتحركُ مقتربًا من موت رأيته يومًا في نوم كابوسي، لكني أفقد بعض ذكراه.. سنوات مرت وجسم عابث في أصقاع الدنيا كغريب يبحث عن ضالة تعصر همومه المنقرضة آمال واهنة، أتقلب كسمكة أخرجوها من مائها.

عشرون سنة او يزيد، ذات الحلم يفترسني كل نوم، وذات الرؤيا تصفقني وألوح بها خائفا كل صباح.. حلم متوحش.. عشرون مررن من عمر يتجرع حدثًا لم يقع ولم أبح به لأحد.

كان كابوسًا في ليلة غريبة، فأجدني مذنباً وأنا أقفُ فوقَ رابية صغيرة تَصعدُ من أرض مبتلة، شغوفًا بمشاهد ما زالت قائمة استقرت في راسي منذ أن غادرت متأزمًا، مكرهًا إلى الأصقاع البعيدة.. أرى الناس تشير إليّ وأرى عجوزًا تشير اليَّ باكيةً تخرجُ من بيتٍ اعرفه .

***

النوم في الحرب

الموت لعبة مسلية في الحرب، الذي لا يموت في الحرب يعاقب بتهمة الخيانة، ويُسْأل بحقد القادة على الباقين أحياء:

- لماذا لم تمت كزملائك الآخرين؟

لعبة الموت تأتي كل لحظة، وفي وقت الاستراحة النادر، يكون الموت قد استراح هو الآخر.. فلا أحد يتعبه.

في نهارات الدخان والرمي المؤطر بفجائع القتل، نكون قد أمسكنا ببنادقنا الخفيفة وارتدينا أرواحنا الرافضة وركبنا خوفنا وذهبنا للحرب أو الموت لا فرق!

في يوم آخر، عندما نسكب على قمصاننا ماء الغسل، يسقط لون أحمر متراكم من عدد مرات إخلاء زملائنا القتلى.. أما نحن، فنداوي جروحنا غير المرئية وغير المحسوسة خلسة داخل مواضعنا الميتة هي الأخرى، لأن شدة الموت تمنع الإحساس بالجروح الصغيرة .

يعلو الدخان ولا يخبو.. ننظر نحو الأفق المُمَتْرس فلا نرى سوى بقايا أشجار فقدت نكهة الحياة وارتضت أن تقف يابسة.. النهار يزحف برويّة الخائفين عندما تحل عليهم لعنة الموت المتربص .

أقف مذهولًا خلف مِتراس ضيق، نعسان وخائف. زميلي لا يستطيع أن يعترف بأننا متخاذلين.. لم نفكر يومًا بالخذلان ولكننا أدركنا أن الموت في الحرب لا أهمية له أحيانًا.. سيضحكون علينا يومًا عندما نقول بأننا بقينا على قيد الحياة دون أن نقتل في تسع هجمات متتالية .

آمرنا الشاب برتبة مقدم حصل عليها كمكافأة على اندفاعه غير المسبوق نحو الأمام! رقيّ رتبتين بمرسوم استبسال كما يسميه الجنود. وهذا الاستبسال لا يشمل الجميع في وحدتنا لأننا متنا جميعًا إلا أنا وزميلي.. لم نمت .

تسع هجمات دون أن يرتد المقدم طرفة عين أو يفكر بالانسحاب بمقدار ذراع واحد. كان مندفعًا حتى أنه قضى على سريته كلها باندفاعه المجنون غير المدروس.. لم يسأله احد ولم يتحدث معه.. في الحرب ثمة أوامر للإعدام ينفذها آمر الوحدة ضد المتخاذلين أو الباقين في سجل الأحياء، إنها أوامر الحرب .

بعد يومين من موتنا جميعًا سألني الضابط:

- ستدفع الثمن غاليًا! سأعدمك بيدي! لن أقدمك إلى محاكمة عسكرية لأن أحكامها تحتاج إلى نَفَس طويل، فيمنحونك حياة لا تستحقها لبعض الوقت .

سأختصر الوقت وأرمي بجثتك للكلاب التي ما زالت تشعر بالجوع رغم أنها لم تفارق المكان منذ شهر!

أيها المتخاذل الثعلب، إنك محشور مع الأموات لا محال.. لم تمت؟ سيضحكون مني إن أخبرتهم بأن سريتي ماتت عدا أولئك المعتوهين!

شتمني بكلام لم أسمعه من قبل وغادر مستاء ..

حدثني زميلي الذي لم يمت في الحرب أيضًا:

لماذا لا نهرب؟ أعتقد أن المقدم سيُسجلنا في قوائم الأموات!

- غريب طرحك هذا.. ربما يقتلنا قبل أن نخطو خطوة واحدة.. بل سيمعن فينا تقتيلًا!

فكرة الهروب كانت تلاحقني رغم أن الضابط تركنا في موضعنا المهلهل لم يسال عنّا لثلاثة أيام، يأتي صباحًا لرؤيتنا ويغادرنا بسيل من الشتائم ثم يعود في الصباح التالي ليزيد من حدة الشتائم والوعيد والتهديد..

في اليوم الرابع حضر ضابطنا بجبيرة في ذراعه اليمنى، استغربنا ما رأينا لكنه سارع الى إخبارنا بغضب:

- جرح لم اشعر به، إنها ثلاث شظايا دخلت إلى ذراعي دون شعوري، على الأقل جُرحت، لست مثلكما!

قلت في نفسي، وما الذي يجعلك تشعر بجرحك وتحس بآلامه وأنت مندفع؟.. إنها الحياة التي نبحث عن سبيل للاحتفاظ بها أطول فترة ممكنة مثل ثور هائج نحو الموت. إنها الحياة التي نبحث عن سبيل للأحتفاظ بها أطول مدة ممكنة.

حدثني صاحبي قائلًا: في يوم عاصف ونهار مغبّر بلون الدم، مت بين يَدَي أمي في ردهة الطبيب الممتعض من تزاحم الناس على المشفى الحكومي.. كان ينظر إلينا بغضب وأمنيات بالموت.. هكذا ترجمت تقاطيع وجهه المتجهم وكلامه المسموم. مُت ولم يفعل هو شيئًا ولكني تحركت بعد دقائق فغضب الطبيب وطردنا .. هي حالة قديمة وكأني أرى طبيبي أمامي عندما اسمع صوت الضابط .. إنه يشبهه في كل شيء. لا يريدنا أن نحيا كما هو، لأنه يرى بان الحياة له وحده ونحن لنا الموت.. وقود نحن لا ينضب في الحروب .

في الدقائق التي أبحث فيها عن نفسي، أجدها في خراب موضعنا وأصوات الدوي المخيفة تطاردنا، لا فائدة، فلا وجود للاسترخاء في الحرب. لكني أبحث عن لحظات أتمنى أن أطير بجناحين قويين يحملانني إلى بيتي وأتوارى هناك بعيدًا عن ضابط السريّة الذي لا يحب رؤيتي حيًا.. إنه يريدنا أن نخدع أنفسنا وأن نمنيها بأكاذيب معششة في رأسه مع أني كنت وما زلت أحب الحياة التي لم ار منها

ما يسرني فيها هكذا أنا، أرى الجزء الأسود منها دائمًا ولم أرها في جزئها الأبيض .

جاءني الضابط مسرعًا وكأنه عثر على خارطة الكنز في الجزيرة المهجورة:

غدًا محاكمتك بتهمة الخيانة! أنا الذي سأحاكمك!

ارتجفت هذه المرة بصدق، خمنت أنه سيقضي عليّ بكل وقاحة لأني نجوت من تسع هجمات. أما صاحبي فنظر إليه وقال له:

- بعد غد!

- لم يسمح لي بمكالمته، انصرف مستاء لكوني لم أتفوه بكلمة. في الليل كان تفكيري بالموت احتلّ حيزًا من ساعات بقية حياتي المؤقتة والتي ستنتهي يوم غد بأمر عسكري من الآمر الغضبان مني!

هذه هي الحرب يا صديقي! ضحكت ضحكة الوداع وضحك معي كفريسة تنظر الى السماء يائسة .

سأمنح نفسي بضع دقائق أدافع بها عن سبب بقائي على قيد الحياة، سأقول له بأني كنت نائمًا في الهجوم الأخير!

سأقول له اني ابتلعت أربعة أقراص منوّمة فحلقت في فضاء الحرب وحيدًا مسرورًا وغادرني خوفي وقلقي واضطراباتي النفسية ثم نمت واستغرقت به حتى انقشاع الدخان وتلاشيه.

سأقول له تناولت أقراص المنوّم لأنام واخلّص نفسي من الموت قتلًا في الحرب.. أنام كالميت فأخدع الحرب!

في الصباح: كانت منضدة خشبية متهرئة تقف على ثلاثة أرجل والرابعة مسندة على غلاف طلقة مدفع 105 ملم وأمامها يجلس الضابط- القاضي- لوحده على صندوق عتاد فارغ. لا مستشارين ولا حاجب! ولا دفاع!

القاضي بملابس رثة لم تر الماء منذ أكثر من شهر كما خمنت.. وجهه ملبد بالغضب والوجوم. وقفت في العراء أمامه، فلا قفص للمتهمين .

سألني بصوت أجش:

- أين كنت في الحرب؟

أجبته بوعيي الكامل:

- كنت نائمًا!

- أنت تُهين المحكمة يا هذا.. قل الحقيقة وإلا ...

- وإلا أقتلك.. أعرف ما تريد قوله لأنك حانق عليّ. كنت نائمًا، ابتلعت أربعة أقراص من عقار منوّم. شعرت أني بحاجة للتخلص من موت عبثي أستطيع ان أبعده عني مؤقتًا. هل عندك حكم للنائم في الحرب؟

- من أين حصلت على الأقراص؟

- من جندي ميت!

ظل القاضي- الضابط- يطلق دفقات عدوانية غير مسبوقة تجاهي، حتى شعرت بأنه يريد افتراسي بأنيابه التي يظهرها عند كل سؤال.

كانت السماء تزحف نحو الغروب. والضابط الجالس على صندوق العتاد يتمايل غضبًا لأنه لم يجد فقرة في قانونه تقتل النائم في الحرب سوى عقوبة بسيطة تحت عنوان إهمال في الواجب لا أكثر..

كان ينظر إلى الشمس الغاربة وهو يخرج مسدسه وأطلق أربع أطلاقات في الهواء ليشتد القصف علينا بعنف فيركض مذعورًا واهرب أنا تاركا المحكمة التي مزقتها القذائف، راكضًا نحو موضعي لأجد صاحبي وقد استغرق في نومه .

***

حلمي الأكبر في الحياة

يبدو كأنها غرفة شبه مظلمة ينيرها مصباح صغير يتدلى من سقف غرفة الصفيح.. أوراق مبعثرة ومجلات أغلفتها ملونة لفتيات في أبهى حلة.. صورة معلقة على جدار أصفر بزي الجنود، مبتسمة بسعادة طافية على وجهها.. كلب يقعى على مؤخرته ينظر إلى صاحبته الجالسة تكتب شيئًا بتوتر ملحوظ تنتابها لحظات بكاء خافت .

بهمة وقلق، تكتب بسيل لا ينقطع من التوسل والاستغاثة لحكومتها.. كلبها الذي أحبته وأغدقت عليه كل العطف والحنان، غير مسموح له بدخول أراضي بلادها. إنه غير مسجل في دفاتر الصحة هناك!

«راتشت» كلبها المدلل عثرت عليه في مكب للنفايات قرب معسكرها في أرض السواد.. راتشت سيموت، راتشت الطيب سيضيع في فوضى الحياة وعنفها هنا، عبارات سطرتها من دموعها في رسالة توسل.. على خديها الحمراوين، تسيل دموع المحبة لكلبها الناظر اليها بعطف!

***

السماء تتلون بلون الدم السائح على الأرض الطينية الممتدة حتى الأفق.. سحابة سريعة تمر من فوق سرفة واقفة.. جنودها يشربون الماء ويتراشقون بقنان مملوءة منه ويضحكون.. أحدهم يبدو أنه بليد يتركهم ويركض باتجاه السوق المزدحمة مصوبًا بندقيته نحو قط هارب مفزوع.. الآخرون يحاولون إبقاء حالة الضحك ويهرولون نحوه مصوبين فوهات أسلحتهم على المارة والباعة..

يحمون ظهر زميلهم الراكض خلف القط المفزوع.. يدخل القط أحد البيوت في طرف السوق من باب نصف مفتوح.. يحاول الجندي المسرور كالطفل اللحاق به فتمنعه امرأة أربعينية وتدفعه لكنه يهجم كالمجنون ويقتحم البيت تحت حماية زملائه الذين انتشروا وكأنهم يحاصرون المكان للقبض على القط المذعور.

بعد دقائق ووسط ذهول الناس المتجمهرين، حضرت خمس فتيات مسلحات يطلقن ضحكاتهن بغنج وسرور ويتوزعن حول البيت بوضع استعداد قتالي.. صراخ المرأة بدأ يسمع من الداخل ولا أخبار بعد عن الجندي والقط ..

بعد دقائق وصلت سيارة رباعية الدفع بيضاء وترجل منها رجل في الخمسين نحيف أبيض حاسر الرأس توجه نحو الدار التي دخلها وكأنه يهم لعمل شيء ما، الواقفون ينظرون بصمت مفجوع لما يجري.

خرج النحيف ماسكًا الجندي المتهور يسيران بتبختر واضح كأنهما يستعرضان انتصارهما على القط المسكين الذي يبدو أنه اختفى تمامًا .

لم يصدر أي صوت من داخل البيت، المراة المنتحبة صمتت تمامًا، الحضور خمنوا بأنها سلمت أمرها إلى الله ولا حيلة لها لما جرى في بيتها.

انسحب الجنود والفتيات المسلحات بسرفاتهم نصف المجنزرة وتوارى النحيف الأبيض في سيارته الرباعية مبتعدًا فيما ظل باب المراة مفتوحًا ولم تصدر أية إشارة منها فغابت تمامًا عن المشهد..

«راتشت» ينظر بفزع لما يجري وصاحبته تضحك! ظلّ الواقفون يحاولون اقتحام حلقة الجنود احتجاجًا لما جرى للمرأة، لكن البنادق كانت مصوبة نحوهم.

اقترح البعض الذهاب بمسيرة إلى بناية الجنود التي يحكمها النحيف الأبيض، احتجاجًا.. أحدهم كان متهسترًا مفضلًا اقتحام تجمع الجنود وتلقينهم درسًا، لكن الاندفاع المفاجئ أفقده صوابه فوقع على أرض طينية لزجة، لم يستطع النهوض بسهولة لكنه نهض أخيرًا محاولًا إظهار قوته التي خارت قبل ساعة.

تدنو الفتاة نحو الكلب وتحتضنه بسعادة وألفة.

الرجل الممرغ في وحل الأرض يتلوى من الركلات الموجعة وتدنو منه وتلسعه بسوطها وهي غارقة في الضحك..

أمسكت إحداهن بيده وسحبته بقوة ليقف متوجعًا متأوهًا لا يقوى على أية حركة واقتادته عنوة نحو فتيات المدرعة اللواتي مازلن يلعقن كؤوس المثلجات فيما ألقت الفتاة السمراء القصيرة بوجهه ماء باردًا من قنينة انتزعتها من بنطال إحدى زميلاتها المنتشيات من لعق المثلجات.

ترجلت إحداهن من مدرعتها وهي السمراء القصيرة نحوه وركلته بقوة.. صعد عنوة سلمًا حديديًا من خانتين يقوده إحساس غريب بالتفرد والانزياح نحو عوالمه المحببة. لا يقوى على شيء سوى أنه سيترك لذاكرته عنان المغامرة فوق أرض لم يطأها من قبل، إنها لعبة جديدة عليه. يصرخن بوجهه أن يسرع بتسلق الهيكل المرعب، إنه عالم غريب خليط من رعب العسكر ورقة الفتيات المنتشيات ..

«راتشت» ينظر بمودة نحو الفتيات! ينزل الرجل مترنحًا من الضرب.. يسيرون ويسير معهم يهتفون ويهتف معهم.

كلبهم المسعور "راتشت" ينبح للنيل منهم، يسيرون خائفين منه ينظرون إلى الرجال المعسكرين أمام متاريس من أكياس التراب

المرتبة بطريقة العسكر في الحروب. يقفون متأهبين لكل طاريء، المتاريس صفت لتقطع الشارع الممتد أمام الأنظار المتعبة من شمس ظلت تحوم فوق رؤوس داخت في المسير نحو بناية أنيقة من طابقين يريدون الوصول إليها.

صار هذا هدفهم رغم قوة العسكر المدججين بسلاح الموت يرتدون نظارات سود سميكة وبانت وجوههم الحمر وكأنها تنز دمًا من لفح الشمس يتبادلون الابتسامات مع فتيات يرتدين ذات الملابس المرقطة. إنهم يبتسمون جميعا. المتحمسون للوصول إلى البناية الأنيقة ذات الطابقين ابتعدوا.

السابح في طين الأرض اللزج يحاول الوصول إليها رغم الموانع التي تحاول إبعاده.. وصل الحشد الغاضب إلى البناية. المعسكرون خلف المتاريس يستعدون لإطلاق رصاصاتهم على صدور الهاتفين برؤية الرجل النحيف الأبيض صاحب البناية الأنيقة. إنه مقصدهم منذ أول النهار..،

الفتاة الضاحكة، تطلق كلبها نحو الناس الهائجين ويتعالى ضحك الجنود، فتيات المدرعة ينظرن إلى جولة الكلب وهنّ في سعادة غامرة.. تحتضن الفتاة كلبها المدلل وينسحب الناس إلى بيوتهم يتوعدون ..

● عنوان حملة واسعة نظمتها المجندة الأمريكية في العراق، السيرجنت «جوين ببرج» وتضامن معها أكثر من 15 ألف أمريكي، طالبوا فيها الجيش الأمريكي بالسماح للمجندة بالعودة إلى بلادها برفقة كلبها «راتشت».

***

الممثل

في صباي، كنت وفيًا للمواعيد مع أقراني خاصة عندما نقرر الذهاب خلسة إلى السينما لمشاهدة أفلام الويسترن التي أعشقها خاصة في أيام الأعياد.

أحببت تلك الأفلام المشوقة حتى علقت صورة الممثل «كلينت ايستوود» وهو يدخن السيجار الكوبي منتشيًا بانتصاراته في غرفتي الصغيرة معتليًا صهوة جواده الأشهب الجامح، ماسكًا بمسدسه متاهبًا ومعتمرًا قبعته الرمادية التي لا تغادر رأسه.

وجدت صورته ذات يوم تباع على الرصيف مع صور كاري كوبر وأم كلثوم وبائع الشاي. الممثل الذي لم يتكلم كثيرًا ولم يضحك ولم يُقتل أو يُجرح في كل أفلامه لأنه أسطورة لا تموت- هكذا تخيلته.

كنت فرحًا مسرورًا ونحن نخترق الشوارع والأزقة سيرًا للوصول إلى بناية سينما الأندلس الشتوية القريبة من النهر الذي يشطر المدينة، نضحك ونثرثر بقصص وحكايات أسطورتي القوي المهيب وهو يطلق الرصاص على خصومه من مسدسه الصغير الذي لم يلقمه أبدًا.

الرجال الأشـرار يموتون أكوامًا أكوامًا ويختبيء الأثرياء الفاسدون المتآمرون عليه، والجياد تهتاج فزعة وتلوذ هاربة خائفة ومن ثم ينفخ فوهة مسدسه مختالًا صامتًا ويضعه بخفة في جرابه.

دخلنا الصالة المضيئة وسط أنغام زي الهوا لعبد الحليم .. في الوسط تحديدًا جلسنا.. صالة كبيرة تتوسطها شاشة محاطة بشريط أسود، الناس يدخلون من باب جانبي قربها، ارتفعت سحابة من الدخان من المدخنين الصغار رغم وجود يافطة كبيرة كتب عليها باللون الأحمر وبخط رديء «ممنوع التدخين».

كدت أموت انتظارًا مع كل دقيقة تمر لكن عبد الحليم كان يخفف عني قسوة الوقت الثقيل سيما ونحن ننتظر الطلة البهية لبطلنا في فيلمه الذي حرصت إدارة السينما على تعليق صوره بكثافة في الباحة الطويلة.

فجأة انطفأت الأنوار وعلا الضجيج والعجيج والتصفير ابتهاجًا.. غرقنا في ظلمة لذيذة إيذانًا ببدء العرض ورؤية بطلنا الذي لا يموت بإطلاق الرصاص عليه والضرب المبرح والسحل بالأحصنة عبر البراري الشاسعة.

إنه قوي ولا يهاب الموت.. كانت اللقطات السريعة تمر كالبرق وأعقبتها لقطات أخرى وموسيقى صاخبة دوت في رأسي لمقاطع

أفلام ستعرض قريبًا، انتهت على عجل وانيرت الصالة ثانية وصدح عبد الحليم.

احتج الجمهور وراحوا يصفرون ويطرقون على كراسيهم لأنهم سئموا الانتظار وعلت سحابة اخرى من الدخان. سكن الجميع عندما بدأ الفيلم المرتقب بعد ربع ساعة تقريبًا من لقطات المقدمة المملة.. موسيقى هادئة وأسماء الممثلين مكتوبة بحروف ناعمة وشوارع وبنايات حديثة شاهقة وسيارات فارهة.. انه ليس فيلمي بالتأكيد ولا هي موسيقى الغرب الأمريكي المعتادة!

ظهرت ممثلة فاتنة بشعر ذهبي تلتمع خصلاته تحت الشمس المتسربة من بين البنايات، أنف مستقيم وشفتان تتهدلان أسفله..

أين ايستوود بطلي؟ كانت الممثلة تخبيء حزنًا بداخلها وهي ترتشف قطرات السم منتحرة على مقعد وثير بأبهى حلة داخل غرفة مؤثثة جيدًا ملئت جدرانها بلوحات لرسامين معاصرين، سقطت الممثلة أرضًا وأذهلت الجميع بوجهها الجميل وعيناها الصافيتان الملتمعتان بغضب خفي كما خمنت.

إنها لحظة مروعة حين تموت البطلة فيما ظل بطلي الكاوبوي لم يمت في كل أفلامه رغم حصار الأعداء وإمطاره بزخات الرصاص التي تدمر جيشًا بكامله.

ماتت الممثلة التي لا أعرف اسمها ، في آخر مشهد بعد مرور ساعتين من الحركة والصخب والتجوال بين الأماكن والحوارات الطويلة والصراخ بوجه بعضهم على قمعهم واستعبادهم لها، رافضة ما يجري من حولها.

ويبدو أن موت صغيرها مريضًا قتل صبرها كما فهمت من الفيلم وسط الذهول المريع للجمهور الذي كان صامتًا.. ماتت صاحبة الصوت الرقيق ومات معها كل حبي لممثلي البطل الذي لم تعد صورته القديمة معلقة في غرفتي .

ظلّ مشهد الانتحار يحوم فوق رأسي لسنوات طويلة متخيلًا صورة الفتاة الحزينة وهي تتجرع السم والتي لم أعثر لها عن صورة أو خبر بعد فيلمها ذاك، لكنها لم تبرح خيالي.

بعد سنوات طويلة، الصدفة وحدها جعلتني أتسمر مدهوشًا عندما رأيت صورتها الملونة على غلاف مجلة فنية في محل صديقي الحلاق وقد كتب أسفلها، «رومي شنايدر» الممثلة التي ماتت منتحرة في منتجعها الريفي وهي في قمة شبابها ومجدها!

***

رغبة التخفّي في لندن

لندن، مدينة تتماوج تحت خطواته وسط سراب الصبح النحيل..

ضباب وشوارع وسيارات فارهة وترام يقطع القلق الباسط راحته في جسد هزيل يجوب الموت في كل لحظة..

موت يحاول النيل من رجل باحث عن مستحيل يترنم به مذ جاء إلى مدينة الضباب متخفيًا. يمشي نهارًا وليلًا لا يعرف شيئًا من لغتهم ولا يعرف ما مكتوب في لوحاتهم..

لا يعرف كيف يمضي يومه مع أناس غرباء تمامًا أو قل هو غريب عنهم حضر في غفلة من حيطة الجنود وهم يسوقون أخيه قاتل الضابط الإنجليزي في بستانهم على شط العرب، نحو سفينة تحمل العسكر الجرحى العائدين إلى بلادهم..

أخوه القاتل، مكبل في قعر السفينة الذاهبة إلى لندن.. يرفعون المرساة..

الزمان.. عشرينيات الأرض المعفرة برائحة الموت والخبل المجندل ببساطيل الجنود الإنجليز المتمترسين في بستان صغير غاف على شط العرب المرهوب من سفنهم الغريبة ودروعهم المخيفة..

ينفخ البوق الصباحي بالجنود.. في غفلة، يطعن الشاب الأسمر ضابطًا يتفحص المكان.. الجنود يتجمعون للتعداد الصباحي.. الشاب الأسمر يخفي مديته ويخبر أخاه الشيخ هواش فيلعن القدر ويشتعل القلب حزنًا وغيظًا.. يا سواد يومك .

الرجل المترنح من تعب لاهث وبرد قارس، لا عقل ولا فكر له.. ينظر بعينيه باحثًا عن مستحيل لم يطرأ حتى في أحلامه..

كيف يعثر على أخيه الأسمر القابع في سجن ما هنا في هذا البلد العجيب بأبنيته وناسه وكلابه الأليفة؟..

لا أحد يسير إلا بقبعة وصحيفة ومعطف.. هواش بدشداشته وعباءته الداكنة وعقاله. علامته الفارقة. أنت؟ يلتفت الانجليزي ويبتسم تاركًا الشيخ في حيرته.. أين يذهب الجائع في لندن؟

يتمتم الرجل.. صائم أنا رغمًا ..

من نافورة في ساحة ماربلآرتش.. يشرب الماء البارد ليروي ما يعتقد أنه عطش، محال ومطاعم وصخب وسط عملية بحث فرصة نجاحها شبه معدومة، كانت المسافات المهاجرة أمامه تبتعد به نحو مجاهيل أخرى.

يبدأ يومه من ويست منستر غرب لندن إلى نيو غيت البعيدة ثم يدور حولهما داخلًا إلى قلب هايد بارك ليستريح.. لا يفك خطًا ولا لغة..

كيف يعرف ما يبحث عنه؟ شوارع طويلة عريضة يبحث فيها عن أحد يفهم ما يريد . يبحث عن نملة وسط غابة، الشقيق القاتل هنا، في معتقل ما، في منطقة ما. هل ينتظر الشيخ المطاعم تلفظ بقاياها ليأكل شيئًا؟ واحسرتاه على نفسي!

يخترق شارع ادجور رود منطلقًا من ساحة ماربلآرتش المجاورة لحديقة هايد بارك واصلًا إلى انعطافة اكسفورد ستريت باحثًا في الوجوه ومفتعلًا حركاته المعبرة عن شخص مسجون.

ذراعان مكبلتان. يؤشر كالأخرس. لا أحد يفهم حركته هذه ولا أحد يهتم إليه أبدًا . شهور تتوالى مذ حضر في سفينة العسكر مبحرًا من البصرة متخفيًا بين كومة حبال في ركن منسي وميت يتغذى على ما يحصل عليه من قطعة خبز أو شيء ما من بقايا جنود ليلًا ولمرة واحدة في اليوم وربما في اليومين، مجاورًا أخيه المحجور عليه في قعر السفينة المحروس، هندامه صار معروفًا لسكان داوننج ستريت ونيوغيتوريجينت وكل أحياء لندن، لحية مثيرة ملفتة ونعال جلدي يظهر أصابع قدميه كأفاع متعاركة واردية شبه بالية ما زالت تستره.

نزل من السفـــينة الخالية ليلًا في الميناء القريب وكان يرى كل شيء متخفيًا حينما اقتادوا أخيه المكبل، فقد اثره عندما أركبوه سيارة بحراسة وراح يقطع المسافات وصولًا لمدينة البرد والضباب.

جلس على دكة حجرية في حي ميدافيل وهو يرسل نظرات متعبة نحو أزقة ميريليبونوبادينغتون وساكس، إنها مترابطة ومتجاورة، يتفحص وجوه المارة الذين لا ينامون مبكرًا كما في قريته.. وحدها هي من التفت إليه. امرأة تجاوزت الستين تجر كلبًا صغيرًا .. توقفت!

هل استطيع خدمتك سيدي؟

لم يفهم، لكنه عرف بسجية المتكهن أنها تسأله عن شيء ما، بادرها بحركته المعروفة، يدان مكبلتان وإشارة على الكتف.. هل فهمت أنه يقصد سجن العسكر أو شخص مسجون مثلًا؟

ظل يكرر حركته وسط مآقي مثقلة بحرقة دموع خفية، حوار الخرسان.. فجأة صاحت المرأة.. عرفت، إنه السجن.. السجن.. لم يفهم كلامها لكنه عرف أنها فهمت المقصود وأومأ برأسه موافقًا راضيًا سعيدًا.. ظل يوسعها ضحكًا وسعادة العاثر على الكنز.. أومأت أن يسير خلفها..

كان كالذي انفتحت له مغارات المعاجز والثروة والسحر.. أمتار قليلة. توقفت تنظر إلى كلبها الذاعن لتكلم شرطي المرور.

انسحبت تجر رفيقها الصغير تحت حيرة الشيخ وفرحه وقلقه، لكنه لم يظهر امتعاضه من المرأة التي تركته خشية غضب الشرطي..

ظل واقفًا لساعتين ينتظر تصرف الشرطي المتجهم.. نحن في لندن. حضر شرطي المناوبة. تعال معي.. مركز شرطة وسط لندن.

شرح لهم الأمر بحركاته، كان جسمه محطمًا.. تجمعوا حوله يضحكون ويعلقون، بصرة.. بصرة.. أنت وحظك يا شيخ.. كان أحدهم قد فسر المشهد بأنه جندي مسجون، قال لجماعته.

أخـذوه إلى سجن عسكري يضم قتلة الضباط والمجرمين وسفاكي دماء جنودهم من غير الانجليز.. الشاب الأسمر النحيل يرتمي عند قدمي الشيخ هواش ويبكي بحرقة الغريب المتروك المهزوم.. بكى الشيخ وتوسل إلى آمر السجن بأن يرجع السجين معه.. عد أنت وسوف يلحقك أخوك بعد محاكمته! تحديتنا في عقر دارنا.. أبارك شجاعتك! لم يفهم لكنه تكهن بالمعنى..

في صباح لندن الباكر، كان رهط الجنود يصعد السفينة الوحيدة الذاهبة إلى الهند.. ثمة جندي يقترب من الشيخ صارخًا بوجهه:

إنديا.. انديا..

فيما صاح الشيخ الصاعد منتشيًا بسعادة وكأنه فهم ما يريد:

بصرة.. بصرة..

استدار ولوح إلى المدينة التي عرف كل أمكنتها عامًا كاملًا، إلا لغتها..

***

وصايا الحكمة

تعالت الأصوات النائحة من الداخل: مات الرجل شاغل الناس!

المتجمعون في الخارج ليسوا حزانى.. كان بعضهم يتحدث عن أمطار الليلة الماضية العنيفة وأحدهم كان يلوك بعلكته مبتسمًا! وآخرون يتهامسون ويطلقون قهقهات دفينة.

انشق الواقفون أمام باب الدار ليخرج الجثمان الملفوف بخرقة سوداء بالية منقوش عليها وردة حمراء باهتة وكلمات كتبت مخربشة غير مفهومة يعتقد أنها تعزية واضحة، يحمله أربعة شبان أحدهم قصير القامة كان يتمتم ومن ثم تتعالى تكبيراته ولا أحد يردد..

مات ليبولد بلوم ولم يترك ابنًا يرثه أو يحمل اسمه أو زوجة تذكره.. انقطع عن الدنيا وكأنه لم يأت إليها. جاء وغادر دون أن يخلف أي أثر ..

أهل القرية يطلقون عليه بلّومي وهو الاسم الشائع له حتى في الجوار، عرف في القرى القريبة وكان لا يرد طلبًا لحرث أرض أو شق ساقية أو صعود نخلة..

بلّومي رماه قدره في هذه البقعة ليموت بعيدًا عن أهله بعد أن سجل مفقودًا في دفاتر الجندية الإنجليزية.. هكذا تحدث شيخ القرية. رجل طاعن يسند جسمه الهزيل على عصا فاقعة:

بلّومي هرب من كتيبة الخيالة ليلًا بعد عبورهم الشط ودخولهم البستان سائرين إلى مدن الجنوب التالية وتلاشى.. بحثوا عنه شبرًا شبرًا ومسحوا الأرض تلو الأرض لثلاثة أيام فتركوه خلفهم يائسين..

توارى الرجل لسبعة أيام ثم ظهر في البستان وارتدى رداء الأهالي لكنه ظل خائفًا مفزوعًا يرتعد كعصفور بلله مطر غزير من أن يعثروا عليه أو يوشى به بينما كان مسير جيش الليفي القادم من البحر بأوامر من حكومة صاحبة الجلالة يواصل اختراقه الصعب للبساتين وهو يصعد إلى مدن أخرى.

هل كان عليه أن يسقط طيلة سنوات في صمت؟ يا لها من مصيبة إنه لم يتكلم مع أحد حتى تمنى الجميع أن يسمعوه أو يروا ضحكته وهي ترتسم على وجهه الأبيض.. إنه مقل في كل شيء! يالللغرابة .

الناس تخيلوا أنه أحد ضباط حملة الإنجليز إليهم وليس جنديًا عاديًا، الحملة التي ذهبت وتلاشت وبقي هو حافرًا أخدود الخفاء بين الأرض والماء وامتهن هدوء المكان وسط حيرة وأسئلة لم يعرفوا أجوبتها حتى آخر لحظة من أنفاسه .

كان العجوز يحدق بالمحمول الغريب على الأكتاف حين فاجأهم وسط الترقب:

كان يخفي شيئًا! كنا نتوجس خيفة منه.. إنه لم يكن كما يعرف الناس!

قال أحدهم وقد علا على وجهه الامتعاض: لم ارتح له بالمرة.. كان ككتلة حديد جاثمة على أنفاسي .

العجوز المتأمل أوما برأسه.. إنه يعرف كل شيء ما لم يعرفه غيره..

الباكيات في الداخل كن ينتحبن بصوت واحد منتظم وكأنهن يمارسن طقسًا متفق عليه.. الحاملون للجثمان وقفوا على مبعدة عدة أمتار من المنزل وانزلوه.. تجمع الرجال حوله .

قال أحد المسنين حضر متاخرًا: هؤلاء الانجليز يموتون بطريقة غريبة كأنهم يقصدونها!

في الأثناء تسلل إليهما صوت رفيع: هم بشر مثلنا ويموتون كما نحن.

لا.. أنت لا تستطيع أن تختبئ دون أن يجدك أحد من الذين يبحثون عنك .. إنهم يجيدون المخاتلة!

وبعد؟

كان صامتًا لا يعرف كلامنا، يتعامل بالإيماءات والرسم على الأرض، بعد سنوات كان يحدثنا بلسان مضحك كأن جرذا أكل

نصفه، عن حياته ومدينة تدعى دبلن ظل يكررها حتى بتنا نعرف أحوال أهلها من مشرق الشمس إلى مغربها، يقول إنه يحبها كأم رؤوم ولولا الجندية لما تركتها ..

قال مرة بتهكم: ولدت في دبلن وأدخلني أحدهم وهو جاري ويدعى جويس كاتب معروف في منطقتنا في كتاب روائي كبير ظل يكتب به عشر سنوات، سيتذكرني الناس كلما قرأوه..

ماذا رآى فيك دون سواك؟

لم ير فيّ شيئًا مختلفًا ولكنه أراد أن يرشيني كي لا أشكيه لدى الشرطة! كان يرمي شجرتنا بالحجارة فيتكسر زجاج بيتنا فيصاب أبي بنوبة صراخ وهيجان، كل ليلة وكل يوم.

جاري المؤلف منحني دورًا في الكتاب الروائي هو أن أتزوج من امرأة تخونني! طلبت منه أن يجعل من زوجتي نورا ـ اسمها في الكتاب ـ مخلصة لي ووفية وفاء الطيور الأليفة التي آكل أحشاءها بشهية لكنه رفض بشدة ونهرني وقال لي سأمحو اسمك إن رجوتني ثانية! هذا كتاب سيخلده التاريخ وسيكون اسمك نارًا على علم أيها المعتوه وستتزوج من ثانية اسمها مولي عفيفة وفائقة الوفاء.

والكتاب؟

اسمه عوليس، لم اقرأه لأني أُقتدت للجندية في نفس العام الذي انتهت كتابته! كان اسمي فقط يتكرر ولكني حسب قول جاري لم

أكن أشبه ذلك الرجل الوارد في الكتاب في أي شيء.. مجرد رشوة لكي لا أرميه في السجن وهو يمارس هوايته يوميًا في رمي أشجارنا بالحجر ويحطم زجاجنا.

مئات الصفحات توصف يومًا واحدًا وتحديدًا السادس عشر من الشهر السادس عام 1904! حتى أني أصادف رجلًا يدعى ديدالوس لينتهي تجوالنا في ملهى ليلي ونفترق بعدها ليعود كل واحد إلى بيته وتنتهي الرواية.

ضحكنا من هذيانه، يضعون اسمه في كتاب، أي كتاب هذا؟ انه يسخر منا يا قوم.

دفن الجثمان في أرض بعيدة ووضعوا على القبر شاهدة باسمه واسم دبلن مدينته. طلب رجال القرية من صاحب البستان تفتيش غرفة الميت وكشف أسراره التي ظلت خبيئة.

كان نهارًا مشرقًا حينما دخلوا إلى حجرة من الطين مسقفة بجذوع النخل، قلبوا فراشه وحركوا سريره المتهرئ، صاح أحدهم بانه عثر على صندوق خشبي وقال بجسارة وقحة: لنفتحه!

ساور الرجال قلق كبير واضح وتملكهم ذعر هائل.

صاح الشيخ الطاعن: للميت حرمته يا ناس، حرام ما ستفعلونه!

تجمعوا في باحة الدار وتقدم صاحب البستان الدمث كاسرًا القفل الصغير للصندوق تحت انظار الترقب.

لبث برهة ساكنًا صامتًا وهو ينظر. لمعت عيناه الصغيرتان ببريق غريب وهو يحمل ورقة مطوية بعناية كأنه في لحظة حداد على وحيده، فتحها وراح يتامل حروفها الركيكة ثم قرأ وهو يولي وجهه صوب الواقفين:

- إن مت ادفنوني في مدينتي! واخبروا اللفتانت كولونيل آرنو بخبر موتي، انفقوا ما جمعته في وليمة كبيرة لكل الناس الذين عشت معهم.

اكفهر وجه الرجل وقطب حاجبيه وهو يحاول صدّ المفاجأة وصارت يداه عاجزتين حين وقعت الورقة وتلقفها الرجال. وكان العجوز الطاعن يوميء للورقة ويقول لهم بأنها وصايا حكيمة، يا له من محنك يحسن التصرف!

قرر الرجال في جلسة عاصفة بأن يتطوع أحدهم بالذهاب الى الكولونيل آرنو قائد الجند وإخباره بموت الجندي الهارب من كتيبة الخيالة حين اخترقوا القرية ذات عام من غزو، في حين أوقدوا شموعًا ونثروا ماء الورد على سريره وحجرته. حضر الليفتانت إلى القرية في اليوم السابع من وفاة بلومي وخطب بالناس المتحلقين حول خيالته:

- أنتم خطفتم الجندي!.. أدار وجهه المتجهم صوب صاحب البستان وقال له: أنت موقوف للتحقيق بتهمة اختطاف أحد جنودنا وستنال عقابك على فعلتك!

امتقعت وجوه الواقفين وتمتموا بغيظ وهزوا روؤسهم رافضين وصاروا ينظرون لبعضهم وهم حيرة وقلق .

اقتيد صاحب البستان من قبل الخيالة وهم يرفعون بوجهه بنادقهم الطويلة فسار مترنحًا وهو ينظر إلى الرجال الذين غرقوا في صمتهم فيما كانت عيونهم تقدح شررًا.

صباحًا حضر الليفتانت إلى القرية صادحًا بسماعة مدوية يحذر الأهالي من مغبة اخفاء جندي هارب منذ ليلة البارحة!

***

صانع الأفكار

كان مدرسًا معي في ذات المدرسة، نحضر سوية ونغادر معًا كل يوم.. لا تأخذه مشاغل الحياة عن حضوره إلا الظروف القاهرة التي تحتم عليه الغياب.

في تطور مفاجيء ما كان في بال احد، راح يحدثني عن حبه للسياسة ومهاراتها وحبائلها ودهاليزها وهمومها وكذبها وتلونها وانتكاساتها وانتصاراتها وهزائمها.

كان شغوفًا ومحبًا للأخبار والتقارير والتحليلات الفكرية، قرأ كتاب الأمير لميكافيلي عشرات المرات حتى خمنته قد حفظه عن ظهر قلب.

عشق رجال الفكر والـرأي واقتنى كتب القادة والمفكرين والزعماء وراح ينهل منها ليأتينا صباحًا محملًا بما قدر عليه من أفكار وآراء يطرحها علينا بحب ورغبة جامحة بأن يصبح سياسيًا ذات يوم، تطور غريب.

كان مدرسًا معنا في مدرسة نحرص على الدوام اليومي بها لإكمال مناهجنا المقررة قبل امتحان نهاية العام، نواظب على التدريس وإعطاء الواجبات تسابقًا مع الزمن، إنه حالنا منذ دخلنا المهنة..

كان يقرأ السياسة بنهم في كل وقت كما يتناول وجباته اليومية المفروضة. عشق مذكرات الساسة والإعلام.. يقرأ ويتأثر ويتكلم كثيرًا عن كل ما يعلق بذهنه..

عندما يستلم راتبه الشهري ، يعطي قسمًا منه إلى حارس المدرسة الفقير تطبيقًا لمبدأ مساعدة شريحة من المجتمع كواجب وطني. وفي خطوة اخرى يمنح بعضًا منه إلى أربعة من عمال النظافة الشباب الفقراء الذين يعملون في الشوارع القريبة من مدرستنا كتكافل اجتماعي كما يرى.

كان يحب مشاركة الناس أفراحهم وأحزانهم ويبحث عن المناسبات كالإبرة وسط أكوام القش ليحضرها ويقابل الناس ويشرح لهم ألاعيب السياسة ومكرها وبأنه يمكن أن يغير شيئًا لأنه يمتلك نظريات- كما يزعم- تساعد في تحسين الوضع العام المعقد أصلًا، فازادت غياباته وكثرت الأسئلة حوله.

قبل انتخابات المجالس المحلية بستة أشهر، أعلن عزمه الترشح بكل عنفوان المنتصر الواثق وبدأ حملة مبكرة لحث الناس على انتخابه بادئًا بنا نحن في المدرسة وطلب منا التأثير على أقربائنا ومعارفنا للتصويت له.

باع كل شيء ثمين في بيته ولم تسلم حتى سيارته الصغيرة القديمة ليموّل حملته الانتخابية الساخنة التي بانت من حركته المتوترة التي لا تعرف التوقف.

انتهى الاقتراع واُعلِنت اسماء الفائزين بالمقاعد ولم يظهر اسمه معهم حتى مع أسماء الاحتياط.

في الدوام بعد يومين شرح لنا مبررات فشله في الحصول على مقعد ولم يقتنع بالهزيمة وأنه مصمم على الفوز في المجلس القادم.

استلم سلفة عشرة ملايين دينار من المصرف بضمان راتبه واستدان مبلغًا يقول إنه أكثر من عشرين مليونًا إضافة إلى مساعدات من بعض أقاربه ودخل سباق انتخابات محمومة لعله يحصل على مبتغاه.

جند لهذه المهمة الصعبة أكثر من عشرة شباب كمساعدين في الحملة مهمتهم تعليق الصور واللوحات التعريفية ويستوقفون المارة باعطائهم كارتات تحمل صورته وبعض العبارات الحماسية التي تدعو إلى بناء الوطن.

تطور المشهد أكثر حينما راح يطبع مئات الصور الكبيرة بالآجل وأنه سوف يقوم بسداد المطابع لاحقًا- كما كان يصرح للمقربين منه.

قُرِأت أسماء الفائزين على شاشة التلفاز ولم يظهر اسمه حتى مع الاحتياط.

أحسست أنه تألم كثيرًا وراح البعض من المراهنين عليه، يلتف حوله لسماع أقواله بعد هزيمته الجديدة المدوية وأول شيء فعله لم يقم بتوصيلي معه كما جرت الأيام لأنه ببساطة لم يعد يمتلك سيارة فترك صحبتي في الذهاب والإياب من المدرسة وخارج المدرسة. لكنه تحامل على نفسه هذه المرة وجاء بعد يومين مبتسمًا إلى الدوام وكأنه ورث كنزًا كبيرًا وسط استغرابنا..

توزعت ابتساماته نحونا وبات يشاركنا في أحاديثنا التي كانت لا تعجبه لأنها بعيدة عن شغفه وعشقه كما يقول.

في ذات صباح حضر إلينا حاملًا بضعة كتب وفرشها على الطاولة، كانت كتبًا نقدية وروائية، رولان بارت وجيمس جويس وفرجينا وولف ونجيب محفوظ وسعيد الكفراوي ويوسف زيدان.. وراح يتصفحها بتلذذ عجيب ونحن ننظر إليه بذهول.

في اليوم التالي صادر الوقت كله لصالحه وبدأ يتكلم عن نظرية موت المؤلف لرولان بارت، وشخصية زيطة صانع العاهات لنجيب محفوظ، ومدينة دبلن في رواية عوليس لجيمس جويس، كان يتكلم بحب جارف للأدب ويؤيد هذا الكاتب ويرفض ذاك الآخر ويطرح علينا أفكارًا لم نسمع بها وعززها بآراء حادة وعجيبة وكأنه يتصنع تلك الأعاجيب ليدهشنا ونوغل في حتمية تصديقه كما يظن ربما.

مساءً كان في الصف الاول لأمسية نادي الكتاب وقد انطلقت مواهبه المفاجئة بالرواية والنقد ونظرياته ومناقشاته ومداخلاته الجريئة التي أذهلت الجميع.

بعد عشرة أيام، حضر صباحًا وهو كئيب ضجر مسوّد الوجه.. ألقى تحيته بهمس وجلس مستمعًا لنا لكنه لم يشاركنا الحديث، لم نسأله ورحنا نجرف بالكلام إلى نهايته..

فجأة نهض من مكانه ونطق عبارته التي هزتنا جميعا: سأعتزل الأدب والسياسة إلى الأبد وسأعود مدرسًا كما كنت دومًا، ولكن بلا أسئلة منكم لأني لا أملك أجوبة لها.

قُرِع الجرس وخرجنا من غرفتنا الصغيرة، ظلّ جالسًا في مكانه متسمرًا يخفي رأسه بين يديه فيما تسلل نحيب متقطع من الغرفة سرعان ما تلاشى ..

***

المذعور

في صباح بارد، هجعت البيوت تحت أغطية البؤس دفعًا لزمهرير يومي يضرب فضاء الشارع الترابي الوحيد الذي تصطف على جانبيه بعض البيوت الآيلة وأخرى تقف بقوة جذوع النخيل والصفيح الصدئ الذي يرميه المعسكر الإنجليزي في مكب نفاياتهم قرب الشارع.

أول الدكاكين كان نجارًا عاطلًا إلا من هموم وبؤس ويُتم، ويتضور وجعًا كلما صادفه المارّة وهو يلعب بمسبحته السوداء الطويلة ساهيًا.

تعالت أصوات بعض الجنود الخيالة وهم ينادون وسط الشارع، وثّاب.. وثّاب.. ويتحركون قليلًا إلى الأمام ويصيحون على البيوت النائمة ولا أحد يجيب..

توقف الجند لدقائق بعد سماعهم اقتراح الضابط المتجهم: نقتحم البيوت من أول الشارع حتى آخره بحثًا عنه. فجأة لمحوا عجوزًا واضعًا عصاه تحت إبطه ويمشي متبخترًا ببطء.. مرّ بهم غير عابئ بوجودهم لكنهم أوقفوه عنوة وسألوه عن بيت وثاب فأجابهم:

- مَن الميت يا ترى؟

رد الضابط بصرامة:

- وما شانك؟ أين بيته؟

أشار إلى أحد البيوت الآيلة ببابه الخشبي. فاتجهوا نحوه وقد ارتكزت جدرانه على جذوع النخل المتوزعة على جانبيه .

فزّ من نومته على هدير الصراخ والطرق الجنوني على الباب المتشقق.

لم يكلموه، اقتادوه إلى دكانه في آخر الشارع. فتحه بإزاحة صفيحة مشدودة بحبل في جانبيها. قال الضابط الانجليزي آمرًا:

- نريد تابوتا على قياسي أنا! تابوت تصنعه للجنرال الذي توفي ليلة البارحة فهو بنفس أوصافي، لشحنه إلى لندن! لقد نسينا جلب توابيتنا المزخرفة اللماعة المصقولة عند مجيئا إلى هنا. إنه الآمر العسكري العاجل من جلالة الملكة الذي أرغمنا على التحرك من الهند إليكم، نسينا أشياءنا المهمة ولوازم نحتاجها، كنّا على عجل.

تمزق الهدوء البارد بوجه وثّاب وكاد أن يغمى عليه وراحت عيناه تبحثان في أرجاء دكانه الصغير فيتلاشى صوت الضابط الذي استقرت عيناه على وثّاب وقد انتفض مفزوعًا وراح يترنح أمام الضابط الذي أردف بعنجهية:

- اسمع، نريد تابوتًا قويًا ولا مثيل له لأن الجنرال يستحق هذا التكريم.

صدر الأمر، فكانت المهلة إلى المساء. وثّاب نجار القرية الوحيد الذي لم يصنع تابوتًا في حياته كان والده الذي عركه الدهر، صانع توابيت لا يُجارى في كل الأرجاء ولكنه مات مؤخرًا بعد أن مرض وخارت قواه تاركًا ابنه غارقًا في يأسه ونار التمني المضطرمة تقبع داخله.

راح يحسب الدقائق الفاصلة للموعد وكأنه يحسب خرز مسبحته الطويلة. يُمني نفسه بالشجاعة وقهر عجزه الذي تهاوى أمام الضابط وجنوده وراح يُقلّب في دفاتر أبيه القديمة باحثًا عن أرقام الطول والعرض لتوابيت مختلفة مضت.

في الصباح الندي الذي عزل الحياة عن الناس، راحت الريح الباردة تصفع وجهه والألم ينهش قلبه بعد التحدي الذي أجبره الضابط الإنجليزي على قبوله، كان أكثر برودة واقل تفاؤلًا له.

مساء سيكون كل شيء وقد اختلف وسيرى ما لم يره في حياته إن لم ينجز تابوت الجنرال.

أبي يا ويلتي من بعدك. لكن أماني الخراب التي ملأت رأسه وداعبت مخيلته، لم تعد تعينه والدقائق تمضي بسرعة ولولا برودة

الجو لكان القرار بان ينجز وثّاب تابوته بأقل وقت للحفاظ على الجسد من التحلل كما همس الضابط.

قال في سره بأن مواعيد الإنجليز تُضبط عليها الساعات فلا يَمزحون ولا يُمددون فيه، يا ويلتي. الخيالة يتحركون في الشارع الترابي فتتصاعد خلفهم الأغبرة وكأنهم زرافات اشرأبت أعناقها بين الناس العزل الذين راحوا يشتمونهم بأقذع ألفاظ البذاءة وسط صمت الخيالة وهلعهم، في حين نظر الضابط المتجهم إليهم بعينين غائرتين خائفتين صامتًا وهو يراقب وثّاب المنهمك بعمله، ينهال على الخشب بمطارق الدهاء والحنكة كما بدا له!

حفيف ريح باردة يلف الشارع فتتجمد الحركة فيه ويسحب الضابط خيالته خوفًا من الصمت الموحش، فهم يخافون الدروب الموحشة.

في المساء، الخيالة يشعلون فانوسًا فتبددت الظلمة الهادرة حول دكان وثاب الذي أنجز تابوت الجنرال وراح يُربت عليه أمام الضابط الذي كاد يطير فرحًا من الدهشة التي عقدت لسانه ولكنه استغرب وجود ثلاث فتحات في غطائه وكان على وثاب المرتسمة على محياه ابتسامة ساخرة، أن يشرح الأمر للضابط المستغرق في ذهوله،

فأخذ نفسًا عميقًا من سيجارته ليطرد ارتيابه ويطوي شكوكه تحت وابل كلمات وثّاب وهي تنثال على رأسه كحبات المطر.

تجمع الأهالي ليروا مشهدًا نادرًا. لملم الضابط خيبته وتلاشى مع جنوده في الظلمة الباردة تلاحقهم النظرات الساخرة ووجبة شتائم أطلقوها هاتكة ستر الليل وهدأته.

امتقعت وجوه الواقفين وغرقوا في تساؤلاتهم واستغرابهم وكأنهم رؤوا شيطانًا يحمله خيالة الضابط .وبعد دقائق زالت علامات الاستهجان والحنق عن محياهم وراحوا يضحكون بخبث ومكر وصاح أحدهم بوثاب:

- من أوحى اليك بهذه الفكرة الجهنمية؟

بعد نصف ساعة، تبعهم وثّاب إلى المعسكر مع أربعة رجال بحجة المساعدة وحمل التابوت على عجلة تذهب به إلى سفينة عسكرية في الميناء حيث سيوارى في لندن.

وقف ممثل جلالة الملكة وضباط القصر والقوات المسلحة وحرس الشرف باستقبال الجثمان القادم من البصرة على أنغام اللحن الجنائزي، لينزلوا التابوت المغطى بالعلم.

الجو البارد المضبب يهز الرجال الذين ارتدوا ملابس جنائزية وهم يطلقون طلقات الوداع الأخير للجنرال الذي ذاع صيته في الأصقاع.

توقفوا عند المنصة التي انتصب عليها ممثل جلالة الملكة ليلقي نظرة الوداع الأخيرة.

رفعوا غطاء التابوت المثقوب لينهض وثّاب ببدلة الجنرال ويقفز كقرد مذعور ويركض نحو الأفق البعيد وسط هلع الجموع المذهولة.

***

مسرح الأقنعة

منذ صغري وأنا أتمنى أن أرى مسرحًا للدمى، سمعت مرة أن عرضًا سيقدم في مدرستنا.

ظللت أعد الأيام والساعات ليتحول الحلم إلى حقيقة وكنت أتناول طعامي مع أهلي متحدثًا عن العرض المرتقب.

وفي الليل، النوم يخبو وأنا أحدث أمي عن العرض المرتقب فتهدأني وتربت على صدري لأنام بعين واحدة، فأحلم بالدمى تتحرك أمامي وتتكلم بصوت غريب يدهشني ويضحكني.

عندما حان موعد العرض ألبستني أمي أجمل ثيابي التي لا أملك سواها وطلبت مني أن أقص عليها ما رأيت فور عودتي ظهرًا.

حضرت إلى المدرسة مبكرًا وسألت زملائي عن وقت بداية عرض مسرحية الدمى. لم يعرفوا واستعانوا بمعلم الصف الذي كانت إجابته صادمة، قال لا أعلم ولم أسمع أنهم سيأتون اليوم. ولم يأتوا بعد ذلك الموعد أبدًا.

منذ تلك الصدمة وأنا لم أدخل عرضًا مسرحيًا للدمى يقوم به أشخاص يرتدون الاقنعة. ولم يتسن لي حضور أي عرض لأن الحياة كانت أثقل من أن أبحث عن ضالتي.

فوجئت بقراءة إعلان بأن عرضًا قريبًا سيكون في المسرح المفتوح، مسرح المدينة الوحيد. قرأته بشغف وأنا ذاهب إلى عملي، لكني رأيت إعلانات كثيرة في أماكن أخرى من المدينة.

لمحت صورًا لثلاثة شخصيات ستقوم بالعرض والتمثيل ولمحت عبارة أثارتني، أن العرض بلا خيوط! ثلاثة أشخاص دون خيوط.

رحبت بفكرة دخولي مع أنها متاخرة. وقلت في داخلي بأن حضور المسرحية متأخرًا أفضل من عدم رؤيتها أبدا. في النهاية إنه العرض الذي أنتظره منذ سنوات طويلة.

كنت أول الداخلين، في مساء ممطر بزخات خفيفة منعشة ومتقطعة، كان المسرح المكشوف خاليًا، بعد ساعتين سيبدأ العرض كما مكتوب عند الباب لكني فضّلت أن اختار المقعد المناسب والقريب من خشبة العرض قبل أن يتزاحم الجمهور.

جلست انظر لفتيين وهما يقفان ربما قبل دخولي، على خشبة المسرح يُمسكان بالستارة وقلت في داخلي ما زال الوقت مبكرًا

وسيتعبان بالتأكيد وهما لا يتحركان كخشبة نابتة في أرض لا تهزها ريح.

خلت أنهما أقوى مما أتصور وسيبقيان في هذا الوضع حتى بداية العرض وإزاحة الستارة.

تبللت المقاعد والممرات والخشبة والستارة الداكنة الممسوكة بقوة لأن قطرات المطر تتابعت لدقائق وبان تأثيرها.

بعد ساعة من جلوسي، بعض الناس بدأوا بالدخول وجلسوا على المقاعد المبللة وحسبت أنهم مثلي تمامًا لا يريدون تفويت الفرصة على العرض هذه الليلة وربما انتظروه طويلًا.

خمنت أنهم شاهدوا إعلاناته تملا الشوارع بيافطات ملونة ثبتت على الحيطان والأسيجة وأعمدة الكهرباء وعلى أبواب المدارس والبيوت، وفيها صور للدمى التي ستخوض العرض ومكتوب تحتها اسم الممثل الذي يؤدي دور كل دمية بلون لامع جذاب. فيما ظهرت أقنعة الدمى الملونة تشير إلى الفيل والرجل المحتال والثعلب فارتدى الفيل قناعًا بخرطوم طويل وأذنين كبيرتين والثعلب. كان قناعه يشي بوجه كلبي شرس واذنين كبيرتين. أما قناع الرجل المحتال فكان كمهرج شرير.

دخل صاحب المسرح العجوز بلحيته البيضاء الخفيفة حانقًا ويصرخ بأعلى صوته المنكسر في فضاء المسرح الذي شغل بعض مقاعده الجمهور، نادبًا حظه ومرددًا بأن العرض يجب أن يتم الليلة حتى لو اجتاح مسرحه فيضان غامر وأمواج وسيول متلاطمة مدمرة جارفة.

خمد صوته فيما أخذ المطر الخفيف يتلاشى وينحسر. كان الجمهور يتقاطر على المسرح المكشوف المضاء بمصابيح صفر باهتة متباعدة ويتخذون أمكنتهم وكأنهم آلات تتحرك بأزرار لا يسمع لهم أي صخب ولا آية احاديث. ويخال لمن يراهم بأنهم دخلوا مقبرة موحشة.

قلت مع نفسي: يا لحظي الجميل وأنا أجلس بين هؤلاء الذين لا يشبهون البشر، إنهم صامتون وأنا أحب متابعة المسرحية بمزاج رائق.

المسرح المكشوف في صمت مطبق. فجأة انقطع التيار الكهربائي فانطفأت المصابيح الباهتة وغرق المكان بالظلام الهادر فيما سُمعت أصوات الرعد المزمجر من بعيد ولم يحركوا ساكنًا او يتململوا.

تقاطر الجمهور فأمتلأت القاعة لأخرها بهم ولم يعد أي مقعد شاغرًا. الجالسون أشعلوا مصابيحهم اليدوية لبعثرة قليل من الظلام المهيمن فالسماء ملبدة بغيوم سود ولا قمر. خرج العجوز الملتحي

ثانية ليخرق حاجز الصمت ويعلن بأن العرض ما زال قائمًا وبعد قليل سوف ترفع الستارة وأردف:

- ما زال الفيل متأخرًا!

تحركت الرؤوس متسائلة وبدأ الهمس عن الرجل الفيل حتى اتهمته امرأة بانه لا يراعي حرمة الجمهور الجالس منتظرًا ووجهت كلامها إلى الملتحي:

- عليك استبداله فنحن لا نمضي الليل كله بانتظاره وقد يقتحمنا المطر الغزير!

الرجل الذي سيقدم دور المحتال والرجل الآخر الذي سيقوم بدور الثعلب، راحا يسيران بملابس العرض بتبختر في الممرات الضيقة بين المقاعد تجنبًا من أن ينالهم غضب الجمهور الذي بدأ يفقد صبره. بينما العجوز الملتحي في فورة هيجان وغضب يصرخ بانفعال:

- الفيل. الفيل الوقح. أين انت؟ ستفسد العرض وأخسر كل شيء! سحقًا لك، ألأنك فيل ضخم تدخلنا في إحراج وحيرة مع الجمهور الطيب هذا؟

دفعت نظري باتجاه الستارة الممسوكة بأذرع قوية لا تتحرك وقلت بأني ربما أقدر على القيام بدور الفيل وأنقذ الجمهور الذي

بدأ يتململ بضجر من مطر عنيف ربما سيسقط هاطلًا في حالة الطقس تنبئ بزخات قوية وتنذر بعواقب شديدة كما حدست، وعليّ أن اقنع العجوز الهائج الذي أزعجنا بصراخه ويمنحني الإذن بصعود الخشبة لأمثل الدور لأول مرة في حياتي ولكن للضرورة أحكام.

تقول القصة بأن الفيل سيؤمن وديعة ثمينة لدى الثعلب الماكر فيحاول الرجل المحتال سرقتها كما قرأت في الإعلانات.

فجأة دوّت زمجرة شديدة وقرقعة رعد عنيفة أرعبت الجالسين في الظلمة، الناس الذين حسدتهم وقلت عنهم لا يشبهون البشر، خافوا وتحركوا وراحوا يثرثرون وبدت علامات القلق والهلع تُرسم على وجوههم.

المسرح يرتجف من الأصوات التي راحت تدور في أرجائه المكشوفة محدثة هيجانًا وخوفًا ورعبًا .

قلت في نفسي لقد انتهى كل شيء وسيغادر الجميع دون أن يروا شيئًا.

نهضت باحثًا عن نقطة ضوء لأتسلل إلى الخارج وانطلق هاربًا واخلص من قادم مجهول مرعب واتفادى ما سيقع. لكني عدلت عن فكرة الهرب بعد فسحة هدوء الجمهور وقررت التحدث مع العجوز

الملتحي لأقنعه بلعب دور الفيل في عرض الليلة مجانًا دون مقابل سوى لملمة الوقت والمغادرة قبل حصول طاريء صعب.

كان الجمهور كأحجار رصت بانتظام لا حركة تصدر منهم ولا كلمة بعد أن هدأ كل شيء واختفت زمجرة الرعد. في الظلمة التي بددتها بمصباح يدوي صغير، أبحث عن الرجل المتقد نارًا لأحدثه عن فكرتي عندما عثرت عليه، كان شبه يقظ بعد أن أغشي عليه كما يبدو بين الجمهور الذي أمعن ضربًا فيه ليصحو مترنحًا تحت القرقعة التي عادت بقوة، عادت القرقعة وعاد معها الخوف من الآتي.

المسرح يموج تحت دوي الرعد المتكسر على صفحة السماء التي حجبت بغيوم سود وحجبت معها النجوم التي رأيت بعضًا منها منذ أول دخولي، تنذر بأمطار غامرة.

نهض الرجل مترنحًا واستقبل فكرتي بارتياح وأمرني بأن أصعد على المسرح إيذانًا ببدء العرض في الظلام الهادر. أقنع العجوز الرجل المكّار والثعلب بالصعود بعد أن اعترضا أول الأمر وقالا بأنه لا يمكن ان يكون ممثلا بالصدفة.

اقترب مني العجوز هامسًا بأن الملقن الجالس خلف المنصة سيقوم بمهمة اسماعك الحوار الذي ستقوله. أعلن

الخبر بمكبرات الصوت وبأن الأزمة قد فرجت وستبدأ لحظات المتعة المنتظرة.

أزيحت الستارة وترك الفتيان الخشبة وتواريا بين الجمهور. صفق الجالسون تحية لبداية عرض الليلة.

أدخلتُ يدي في دمية رأس الفيل وخرطومه ولذت خلف المنصة المثبتة على الخشبة، وما عليّ إلا تغيير صوتي ليبدو مضحكًا وتحريك القناع بذراعي وأصابعي.

نطقت بأول كلمة فانطلقت الضحكات رغم أني لم أقل شيئًا بعد وخمنت بأن الناس ملوا الانتظار ويحاولون الترفيه عن أنفسهم بأية وسيلة لأن الملل سرى في دواخلهم وكادوا أن يخرجوا ويتركوا العرض لولا مبادرتي.

قلت محاورًا الثعلب بأني سأسافر وأريد ائتمانك على وديعتي الثمينة الغالية التي لا أثق بأحد غيرك وأنت تعلم أن أكثرهم قد بدّلوا جلودهم وصرت أخاف من أقرب واحد، حتى الذي يضحك بوجهي أخاف منه أكثر من الآخر الغريب الذي لا أعرفه. وديعتي هي صرة من الذهب الخالص ورثتها عن ابي الذي لم يترك لي سواها.

كان الملقن اللائذ خلف خشبة المسرح يُسمعني الكلمات التي ألقيها على مسامع الثعلب.

ضحك الثعلب وقال بأن هذا واجب الصداقة فاطمئن وسأسهر على حمايتها وسارعاها كما أرعى أولادي...

سمعت آهات التعجب من الجمهور وبعضهم ضرب كفًا بكف احتجاجًا على تسليم الوديعة للثعلب الماكر الذي لا تبدو سمعته جيدة بين الناس.

التفتُّ للخلف فوجدت العجوز يوميء لي بالنزول، اقتربت منه فكان الرجل الفيل قد وصل فخلعت القناع بسرعة، أدخل ذراعه في الدمية وصعد يحاور الثعلب. وبعد أن عرف الجمهور بأنه الممثل الحقيقي تعالى التصفيق والهتاف والصفير.

تنحيت جانبًا لأرى ما يراه الجمهور. قال الفيل للثعلب بأني سأسافر إلى الغابة لأحضر حفلة خطوبة قريبي وسأتأخر بضعة أيام وهذه وديعتي الثمينة أمانة عندك صديقي.

رد الثعلب مسرورًا بأن هذا من دواعي الفرح والسرور وأنها لثقة لا استحقها ولكنك صديق نبيل تعرف جيدًا من يحبك ولا يريد بك سوء، سأحميها بكل جهدي وكأنها لي، لا تخف واذهب للغابة مطمئنًا صديقي.

ضج الجمهور بالاحتجاج وأن يتغير الحوار وهددوا بتنظيم تظاهرة كبيرة تطوف أرجاء المسرح وربما الخروج إلى شوارع المدينة وقام بعضهم مقتربًا من خشبة المسرح، ملوحًا بيده بالرفض والاستنكار والشجب وطلبوا إعادة المشهد بدون الثعلب وطرده من المسرح وتوقيفه عن العمل لأنه خادع وصاحب حيلة ولا أمان له وهددوا بالخروج والمقاطعة.

لكن العجوز الملتحي طلب الهدوء عبر مكبر الصوت وأنه سيتكلم مع الممثلين لإعادة المشهد بشكل آخر يرضي الحاضرين.

رفض الرجل الثعلب وصف الجمهور له بالماكر الخائن وقال بصوت عال بأنه صديق حميم للفيل الوقور وبانه لا يخونه أبدًا وما تسمعونه عن الثعلب هراء في هراء، الوفاء من طبعي ويجري في دمي.

ظل الجمهور يحرك المصابيح اليدوية بوجه الرجل الثعلب لإجباره على ترك الدور والتنحي حالًا وعلت صيحاتهم وهتفوا بوجهه بأنهم سيتخذون إجراءً رادعًا ضده إن لم يمتثل لأوامرهم.

رأيت الرجل المكار الذي لم يتكلم أبدًا، ينظر للجمهور بغضب ويخال لي بأنه غير راضٍ على الضجة التي ربما ستطيح به كما صديقه الثعلب، مع أنه لم يقل كلمة بعد.

لم تفلح محاولات العجوز بالإقناع والتهدئة والتوسل ولم يهدأ الجمهور رغم أن المطر بدأ ينزل سرعان ما لحقته أصوات الرعد المخيفة التي تكررت مدوية صاخبة.

أخذ المطر يهطل بغزارة صاحبته ريح عاصفة. هجم الجمهور متزاحمًا على باب الخروج فيما راح آخرون يتسلقون الجدران ليقذفوا بأجسادهم إلى الخارج الغارق المترنح تحت وابل مروع.

المتدافعون يصرخون تحت طرقات الرعد العنيفة والمطر الهاطل بغزارة الريح التي اقتلعت ألواح الخشب والمنصة وتطايرت فوق الرؤوس.

تدافعتُ للخروج مع الجمهور الغاضب الذي صبّ شتائمه على العجوز وممثليه الذين اختفوا وسط الصخب، فعثرت قدمي بخرقة حاولت ازاحتها فكانت وجه الفيل وخرطومه الذي داسته الأقدام الخائفة، فيما واصلت تعثري لأجد وجوهًا كثيرة للثعلب الخدّاع مبعثرة تدوسها الأرجل والمطر ما زال ينهمر كشلال مع أني رأيت ممثلًا واحدًا بوجه الثعلب الماكر.

انفض كل شيء وعاد المسرح الغارق بفيضان وصل إلى المقاعد ورأيت وجوه الثعلب طافية رغم الظلمة التي كنت

أبعثرها بمصباح يدوي صغير ووجه الفيل يترنح وحيدًا بينها لكني صعقت عندما رأيت وجه الرجل العجوز الملتحي طافيًا يتراقص مع الوجوه الأخرى.

***

الكاتب في سطور

- إبراهيم سبتي.
- قاص وروائي عراقي.
- بكالوريوس لغة عربية.
- عمل مدرسًا للغة العربية في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمات.
- عمل مديرًا لإعلام وزارة التربية، ومتحدثًا رسميًا للوزارة.
- خبير تربوي في وزارة التربية.
- عام 1983 نشر أولى قصصه في الصحف المحلية .
- أُعدَّت بعض قصصه كتمثيليات إذاعية وتلفزيونية منها: وجوه في ذاكرة الليل- الطريد- مباغتة جبل ونقلت للتلفزيون- خمس قصص قصيرة ساهم في إعدادها بعض الإذاعيين المعروفين . أما وجوه في ذاكرة الليل فقد أعدَّها الناقد باسم عبد الحميد حمودي- الهاربان مسلسل إذاعي من 30 حلقة أعده الدكتور سليم الشمري.
- ترجمت بعض قصصه إلى اللغات الإنجليزية والألمانية ونشرت ضمن دراسات عن القصة العراقية الحديثة .

- ساهم في تاسيس مجلة أور الأدبية في الناصرية والتي كتب فيها معظم أدباء العراق المعروفين.
- محرر مجلة المشهد الثقافي في بغداد.
- محرر ملحق جريدة الثقافي في بغداد.
- عضو نادي السرد في اتحاد أدباء العراق في الدورة السابقة.
- نشر عشرات الدراسات والمقالات النقدية في دوريات ومجلات عربية متخصصة.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات والورش الثقافية والأدبية.
- شارك في مؤتمرات القصة والرواية العراقية والعربية.
- كتب عن تجربته أدباء ونقاد عراقيين وعرب .

المؤلفات

- الغياب العالي- مجموعة قصصية- صدرت عن دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة/ بغداد ١٩٨٩
- ماقالته الضواري في حداد الإنس- قصص- صدرت عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق عام 2002.
- نخلة الغريب- رواية- صدرت عن دار الشؤون الثقافية العامة في وزارة الثقافة بغداد عام 2003 .

- نهار بعيد- قصص- إصدار خاص- ناصرية 2007 .
- الشاعر كمال سبتي في رؤى النقاد والأجيال الشعرية- إصدار خاص- 2007
- جنة العتاد- رواية- دار الينابيع دمشق 2010.
- بائع الضحك- ق ق ج- دار ميتوبوزميا بغداد، دمشق 2012.
- حيطان مسيلة للدموع- قصص- وزارة الثقافة، عام 2013.
- طائر في غيبوبة- قصص وزارة الثقافة- الشؤون الثقافية 2014.
- رواية سفرجل- إصدار خاص 2017.
- قصر الثعلب، رواية ٢٠١٩ دار الفؤاد القاهرة.
- سحر الرواية دراسات نقدية، دار ابن النفيس عمان ٢٠١٩.
- كنب عن منجزه خمس رسائل ماجستير في جامعات العراق وعمان.
- فاز كتابه بائع الضحك كأفضل كتاب لعام ٢٠١٢ في استفتاء جريدة الزمان.

الجوائز

- حاصل على جائزة القصة القصيرة العراقية عام 1992
- حاصل على جائزة القصة القصيرة العراقية لمجلة الاقلام. عام 2006

- جائزة القصة في المركز العراقي الثقافي عن قصة النوم في الحرب لعام ٢٠١٠.
- جائزة القصة في المركز العراقي للقصة القصيرة جدا لعام ٢٠١٣.

مخطوطات:

- محنة القصة القصيرة جدًا- دراسة.
- طائر الفراديس- مسرحية بثلاثة فصول.
- قاص عراقي معاصر انطلوجيا.
- الإعلام الموجه- نظرة تحليلية.

فهرس

الإهداء 5

عربة الصمت 7

خيول بدينة 12

الشارع الوحيد الخالي 18

امرأة الفنجان 24

المرهوب 29

النوم في الحرب 34

حلمي الأكبر في الحياة 41

الممثل 47

رغبة التخفّي في لندن 51

وصايا الحكمة 56

صانع الأفكار 63

المذعور 68

مسرح الأقنعة 74

الكاتب في سطور 86